وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

علماؤنا وتراث الأمم

تأليف

أ.د/ محمد محمد أبو موسى

القوس العذراء

وقراءة التراث

الإصدار السادس والتسعون ١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥ م

عُلَمَاؤُنَا
وَتُرَاثُ الأُمَمِ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
دولة الكويت - في مطلع كل شهر هجري

جميع الحقوق محفوظة

الإصدار السادس والتسعون
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

العنوان:
ص.ب ٢٣٦٦٧
الرمز البريدي ١٣٠٩٧ الكويت
هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ - ١٨٤٤٠٤٤
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

البريد الإلكتروني
info@alwaei.com

الموقع الإلكتروني
www.alwaei.gov.kw

الإشراف العام
رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م
الوعي الإسلامي
AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

دولة الكويت
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

علماؤنا وتراث الأمم

تأليف
أ.د/ محمد محمد أبو موسى

الإصدار السادس والتسعون
١٤٣٦ هـ / ٢٠١٥ م

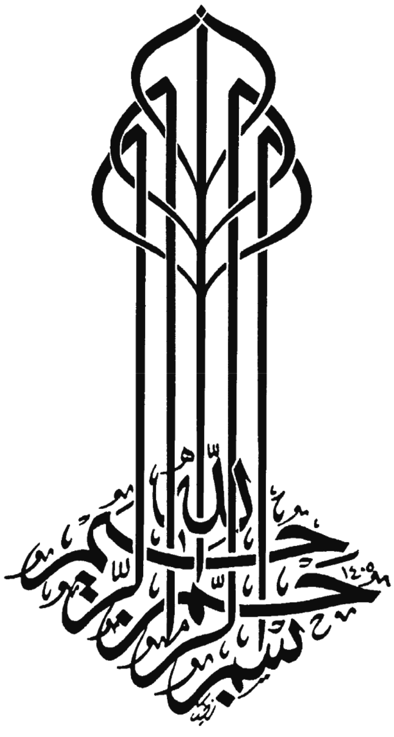
بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم رئيس تحرير مجلة الوعي الإسلامي

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلَّمه البيان، ووهب له العقل؛ ليعقل عن ربِّه ما شرعه وأبان، وأرسل رسوله بالهدى والبلاغ والتبيان، وقيَّض من عباده من نظم العلم بأفصح لسان، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد:

يعتبر التراث العربي واحداً من كنوز الحضارات الإنسانية الشامخة، فهو تراث عريق ممتد الجذور، وحين بزغ فجر الإسلام على الجزيرة العربية، نمَّاه وكشفه للعالم، ولما امتدَّت فتوحاته، ودخلت فيه أمم كثيرة ذات حضارات قديمة، وانخرطت هذه الأمم بالحضارة العربية الإسلامية، وهجرت لسانها القديم، واتخذت اللسان العربي أداة فكر وبيان، أنتج لنا هذا التزاوج أمة جمعت بين صنوف شتى من الثقافات والعلوم التي أَثْرت التراث الإنساني، وجاءت هذه العلوم مسطرة على لفائف ورق البَرْدي وغيرها، ثمَّ تطوَّر العمل بها حتى باتت تُعرف بـ"المخطوطات" التي صارت- فيما بعد- علماً قائماً من أنفس العلوم؛ يُدْرَس ويُدَرَّس.

وقد شهدت العقود الأخيرة اهتماماً متزايداً بهذه الكنوز الحضارية من الدَّارسين العرب والمسلمين، ومؤرخي العلم الغربيين على حد سواء، فبذلوا لأجلها الجهود المضنية، التي تمثَّلت في عملية رصد المخطوطات وجمعها، وفهرستها وترميمها وحفظها، ثم في تحقيق نصوصها، ومعالجة نماذجها، نسخاً وقراءة وحلًّا لمشكلاتها، واستجلاءً لغوامضها، ثم في تناولها بالدراسة والتحليل؛ بحثاً عما يمكن أن تتضمنه من معلومات قد تفيد البشرية جمعاء.

إن قضية موقفنا من تراث الأمم وآثارها وجملة ما أبدعته، قد أثيرت منذ بداية الصدام الحضاري والفكري بين الأمة الإسلامية والأمم الأوروبية، وقد تعرض لهذه المواقف المختلفة من علومنا وتراثنا ومن علوم الآخرين، الأستاذ الدكتور: محمد محمد أبوموسى حفظه الله وأمد بعمره بالرسالتين النافعتين "علماؤنا وتراث الأمم"، و"القوس العذراء وقراءة التراث" اللتين تضعهما مجلة "الوعي الإسلامي" بين يدي قرَّائها الكرام،

لتكونا ضمن إصداراتها العلمية والثقافية القيمة، وذلك من خلال مشروعها الثقافي والفكري المتكامل، والذي جمعت من خلاله الكتب النافعة والإصدارات الثقافية والعلمية الماتعة.

وتم العمل على إخراج هذا الكتاب من خلال:

جمع مادته العلمية، وإعادة صفها وإخراجها وترتيبها، وضبط مشكلها، ومطابقة مادتها العلمية بأصولها، ثم عمل فهرسة لموضوعاتها، ومقدمة تتناسب مع محتواها، واخترنا بعض مقالات الدكتور أبوموسى التي نشرت بمجلة "الوعي الإسلامي" التي تتناسب مع مواضيع الرسالة إتماما للفائدة، ليخرج الكتاب للقارئ الكريم بحلَّة جديدة تتناسب مع قيمته العلمية.

وكان الدافع للعناية بهذا الكتاب وإعادة إخراجه هو :

خدمة التراث الإسلامي والعربي، من خلال إثراء المدخل التاريخيّ في تدريس التراث، وتنمية الحسِّ النقدي، والوقوف على طبيعة التطوُّر العِلمي ومنهجية البحث، وتوظيف نصوص التراث في أغراض التأصيل لمناهج البحث العلميِّ، ونظريّاته المعاصرة.

ومجلة "الوعي الإسلاميّ" إذ تقدّم هذا الإصدار، فإنها تتوجه بخالص الشكر والتقدير لفضيلة الأستاذ الدكتور: محمد محمد أبوموسى حفظه الله ورعاه، على إجازته طباعة هذه الرسائل القيمة، والشكر موصول لمن ساهم وأعان على إصداره، سائلة الله عزوجل أن يجعل فيها النفع والفائدة للجميع.

والحمد لله رب العالمين

رئيس التحرير

فيصل يوسف أحمد العلي

نبذة عن المؤلف

الدكتور محمد محمد أبوموسى من مواليد ١٩٣٧م، درس في معهد دسوق الديني التابع للأزهر الشريف، ثم حصل على الثانوية الأزهرية في محافظة كفر الشيخ، وليسانس اللغة العربية من جامعة الأزهر عام ١٩٦٣م، ونال درجة الماجستير عام ١٩٦٧م، والدكتوراه عام ١٩٧١م، وكان عنوان رسالة الماجستير "بلاغة المفتاح.. دراسة وتعليق"، وعنوان الدكتوراه: "البحث البلاغي في تفسير الزمخشري"، درّس في جامعة الأزهر والجامعة الإسلامية في ليبيا، وجامعة أم القرى، وزار جامعة أم درمان، وناقش رسائل في الشارقة والبحرين،.. من شيوخه الأستاذ عبدالسميع شبانة، ورفعت فتح الله، وأحمد كحيل، والشيخ الحجار.

وممن درَّسه الشيخ محمد علي النجار محقق كتاب الخصائص، وامتحنه شفوياً الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد.

من زملائه د. محمد إبراهيم البنّا محقق تفسير ابن كثير، ونتائج الفِكْر للسُّهيلي، وأسد الغابة لابن الأثير، وعبدالفتاح حجاب، وعبدالعزيز علّام، وسيِّد العراقي.

مقالات أ.د. أبوموسى في مجلة "الوعي الإسلامي"

م	الموضوع	العدد	الصفحة
١.	مهلا أيها الكبار	٢٢٤	١٠٠
٢.	قراءة في مقدمات كتب القدماء	٢٣٠	٥٨
٣.	حقائق غائبة	٢٣٤	٩٣
٤.	ضرورة سيطرة التوجيه الإسلامي في ديار الإسلام	٢٥٦	٨٦
٥.	إليه يصعد الكلم الطيب	٢٦٠	١٦
٦.	ويلكم ثواب الله خير	٢٦٩	٣٠
٧.	أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب	٢٧٣	٦٨
٨.	التراث حركة تأمل وإبداع	٢٤٧	٤٠
٩.	حتى لا ينقطع ميراث النبوة	٢٨١	٣٦
١٠.	البلاغة الغائبة	٢٨٧	١٢
١١.	الخطابي وإعجاز القرآن	٢٩١	١٠
١٢.	تصحيح مقولة في تاريخ الإسلام	٢٩٢	٣٥
١٣.	يرفع الله الذين أوتوا العلم	٢٩٥	١٦
١٤.	والله متم نوره ولو كره الكافرون	٣٠٢	٣٢
١٥.	أمثال سورة النور	٣٠٥	١٢
١٦.	قيم منهجية يجب أن تعود	٣٠٨	١٧
١٧.	أفلا يتدبرون القرآن	٣٠٩	١٠
١٨.	وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالًا	٣١١	٢٢
١٩.	والذين هاجروا في الله	٣١٣	٣٦
٢٠.	البلاغة القرآنية وتوضيح واجب	٣١٥	١٢
٢١.	معذرة إليك ياشيخ الأصحاب	٣٤٠	٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الذي اصطفى، وبعد .

فإن قضية موقفنا من تراث الأمم وآثارها، وجملة ما أبدعته، فيما اصطلح على تسميته بـ «العلوم الإنسانية»؛ قضية قديمة، وقد طال الجدل حولها في أوائل القرن الماضي، وقد أثيرت منذ بداية الصدام الحضاري والفكري بين الأمة الإسلامية والأمم الأوروبية المسيحية، وذلك بعدما مرت عليها قرون من الغفلة والتهاون، استيقظت فيها أمم الغرب وقطعت أشواطًا في مختلف المعارف الإنسانية.

ولا أعرف أن مثل هذه القضية قد أثيرت في تاريخ الأمم، وتاريخ الصراعات الحضارية والفكرية بهذا الحجم، وهذه الإطالة، وهذا الإلحاح، الذي شغلت به مساحات زمنية وعقلية في تاريخنا الحديث وفي واقعنا المعاصر. وكان ما كُتب جديرًا بتركها لكثرته وشيوعه، ولكنه حدث أن نبتَت فينا نابتة هذه الأيام، أعادتها بعناد وإصرار واستفزاز، وألبستها ثوبًا من ثياب الزور، هو ثوب "التنوير".

وقد عمدت هذه الطائفة إلى إخراج جانب من جوانب الحوار القديم يخدُم أغراضها، دون أن تكون أمينة في عرضها فتقدم الجانب الآخر، حتى يكون القارئ على بينة، ويرى الرأي الآخر، ويكملُ لديه طرفا الحوار.

ثم إن الجيل الذي تُنقلُ إليه الآن الأمانة ليست لديه خبرةٌ بما حدث، ولم تكتمل عنده الأدوات التي تعينه على معرفة الزيف فيما فيه زيف، ولهذا رأيت أن أكتب في هذا الموضوع حتى لا يظل أبناؤنا يسمعون القضية من جانب واحد.

وقد رأيت أن أعرض مواقفنا المختلفة من علومنا وتراثنا ومن علوم الآخرين وتراثهم، وأن أشير إلى ما يتصل بهذه المواقف، ثم أجعل موقف علمائنا من تراث الأمم نورًا نهتدي به في يومنا وفي غدنا، وموقفهم جديرٌ بأن ننظر فيه وأن نهتدي به، لأن أجيال علمائنا هم الذين أقاموا حضارتنا التي غلبت وسادت أزمنة متطاولة، وأحرزت بهم الأمة كثيرًا من الانتصارات، وكثيرًا من التقدم، ثم إن التلازم بين الحياة الفكرية والحيوات الأخرى في الأمة الواحدة حقيقة ثابتة لا ريب فيها، ففي الزمن الذي عاش فيه المتنبي شاعر العربية الأكبر، كان يعيش معه أبو الفتح ابن جني الإمام اللغوي، وكان العصر عامرًا بشيوخ الفقهاء والمفسرين والمحدثين، والأفذاذ من قواد الجيوش، وانتصارات سيف الدولة ووقائعه بالروم، كل ذلك مرتبط بعضه ببعض قوةً وضعفًا، وصحةً وزيفًا، فإذا رأيت اختلالًا من جانب من أبواب الحياة، واستطاعت عينك أن تراه، فاعلم أنه قائمٌ في باب آخر، وإن كانت عينك لا تراه.

وكل هذا يؤكد أن موقف علمائنا من تراث الأمم في هذا الزمن الزاهر من

تاريخنا كان موقفًا مدروسًا في حركة حياة لم يكن فيها للعشوائية مكان.

والذي يجري في ساحتنا الآن حول مجموعة العلوم العربية والإسلامية، وهي التي أعنيها في بحثي هذا، يتلخص في مواقف ثلاثة:

الموقف الأول: هو الموقف الذي يلح في دعوتنا إلى أن نصطنع علوم الآخرين، وأن نتعلم ما يتعلمون، ونفكر كما يفكرون، وأن نعيش كما يعيشون، وأن نتقلب بين علومهم وسلوكهم، لأن العلوم هي الأصل النظري للسلوك، والسلوك هو الجانب التطبيقي للعلوم، والعلوم مجموعة قيم فكرية وأخلاقية، ولهذا كان السلوك نابعًا منها. وهذا الجانب ألح عليه رجالٌ لا تزال أسماؤهم تُذكر، وهي موصوفة بصفات عالية تغري الآخرين بالأخذ عنهم، وقد تطرف بعضهم وجاهر بما يضمره غيره من نظرائه، فقال: يجب أن نترك الحديث عن خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب والجاحظ والمتنبي، ويكفي ما قلناه فيهم وما ذكرناهم به، وما أخذوه من وقتنا، ولننقل الحديث إلى كَانْتْ ودِيكَارْت وهيجل ونظائرهم من أهل الفكر الحي الذي صاغوه شعوبًا حيَّة. (ينظر في هذا طه حسين وسلامة موسى).

وقد انبثق من هذا الاتجاه الهجوم الشَّرس على علومنا وعلمائنا وفقهائنا وشعرائنا، فالنحو علم اسْتُخْرِجَ من لغات الصحراء والخرائب، ومن أفواه قيس وتميم، وتلك أمة قد خلت، ويجب أن تخلو لغاتها ونحوها كما خلت، وأن نستخرج نحونا من لغاتنا نحن، وأن نعود إلى ألسنتنا، كما تستخرجُ الأمم

الأخرى نحوها من ألسنتها المتحركة في أفواهها، وليس من ألسنة هذيل وثقيف. (ينظر في هذا دراسات الدكتور سعيد بدوي).

والبلاغة علم بلغ حدل اليأس، ويجب أن يدفن في تربة طيبة، وأن نغرس في رفاته غرس البنيويين والأسلوبيين، وأما نقد الشعر وتذوقه ومعرفة أسراره فالذي عندنا منه كالذي عند حلاق القرية من علم الطب، والذين يأخذون عن علمائنا علم صناعة الشعر ويتركون «منجزات العصر» كالذين يذهبون إلى حلاق القرية ويتركون الطبيب المتخصص. (ينظر في هذا كتابات لطفي عبدالبديع وصلاح فضل).

أما شعراؤنا فقد كانوا في الجاهلية يمثلون موكبَ النفاق حول أرستقراطية قريش (هكذا)، ثم في الإسلام ما لبثوا بعد عصر النبوة أن تحول ركبهم وتحولت مزاميرهم إلى أرستقراطية بني أمية ثم بني العباس، ومن طول ممارسة الشعراء للنفاق جهلت ألسنتهم مسالك الصدق، فلما تكلموا في الطبيعة عجزوا عن وصفها، لأنهم اعتادوا على النفاق لا غير.

والفقهاء لم يسلموا من هذه الحملة الباغية، فقد كتبوا الفقه وهم مرعوبون من السيف، أو طامعون في المنائِح، فانحرفوا بالفقه لصالح من في يده السيف والذهب. (يراجع في هذه المسألة عبدالقادر القط في كتاب: إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين).

وأعتقد أن تاريخَ الأمم كلها لا يعرف كتّابًا حملوا أقلامهم لهدم علومهم

وحضارتهم ورجالهم وتاريخهم كما فعل هؤلاء.

وأصل هذا الاتجاه لا يرد - كما يقال - إلى التأثر بالفكر الغربي، لأن التأثر بالفكر الغربي يفضي إلى عكس هذا، والذي يكتبه الأوروبيون إلى شعوبهم مؤسَّسٌ على تأصيل ثقافتهم وعلومهم، وتحليل هذه العلوم وتجليتها، ولايزالون يشرحون أفلاطون وأرسطو وهوميروس وأريستوفان، ويضعونهم في مكانة عالية للشعوب الأوروبية كلها، ومكانتهم عند هذه الشعوب لا تقل عن مكانتهم عند اليونان الأقدمين، ومهما كانت اتجاهات الكاتب، فإن تأصيل المعرفة مما لا يجوز الحياد عنه.

ولاتزال كتب النقد تكتب فصولًا مطولةً عن أفلاطون وأرسطو وغيرهم، ولاتزال الأقلام تنقِّح تراثهم جدة وحفاوة وتجلية، وتدبِّج حولهم أكثر مما تدبِّج حول النقّاد المعاصرين، ثم ترى الكاتب يتجه إلى تأكيد النواحي الإيجابية في تراث رجال قومه، ويبعث همة القارئ، ليراجع ويعاود قراءة هؤلاء الشعراء والنقاد والمفكرين. فإن كان كاتبًا إنجليزيًا رأيته شديد الحفاوة والاعتزاز بالشعر الإنجليزي ورجال أمته، وإذا كان فرنسيا رأيته شديد الحفاوة بمجد بلاده وعزها القومي كما يقولون.

وهكذا ترى الكاتب مُتَّجِهًا إلى جمهور شعبه وجنسه وكأنهم بنو أبيه، يبث فيهم حب المعرفة، ويغريهم بالإقبال على رجالهم ومفكريهم وشعرائهم وأهل العلم في تاريخهم كله، وهذه الرسالة الحقيقية لحملة الأقلام: تثقيف

الشعوب وصقلها بثقافتهم وعلومهم، وشحذ روح الانتماء والولاء للأمة وتاريخها ورجالها، وبث ذلك كله حتى يَسْطَعَ في كل بيت يتوارثه الأبناء عن الآباء، وبهذا تنهض الشعوب وتسير قدمًا إلى الأمام.

ولا يمكن أن نعتقد أن الذين يهدمون علومنا بهذا الحقد الأسود، ويشيعون في علمائنا وسفرائنا ورجالنا مقالة الزِّراية والقَدْح- لا يمكن أن نعتقد أنهم في ذلك متأثرون بالكُتَّاب الغربيين، الذين يسيرون في أممهم سيرة الشيوخ في أمتنا، ولو كانوا فينا لكانوا شيوخًا محافظين، لم تعرف هذه الأمم شاعرًا فذًا، ولا مفكرًا مبدعًا، ولا نابهًا نبغ في شعر أو نقد إلا وهو عظيم، لارتباطه بثقافته وتاريخه ورجاله، وبمقدار تفوقه يكون تشبثه بما نسميه الأصالة والتراث، وهذا ظاهر ظهورًا لا يلتبس، ويعرفه من قرأ مختصرات فكر هذه الأمم.

قلت: إن هذا الاتجاه الغريب الذي يضرب علومنا وتاريخنا ورجالنا لا يمكن أن يكون ثمرة قراءة لما تكتبه الأقلام الحرة في أي أمة من الأمم، وإنما نجد علاقة واضحة بينه وبين كتابات أخرى، ليست من باب العلم في شيء، وإنما هي من باب السياسة. هذه الكتابات هي ما كتبه رجال من الأوربيين غمسوا أقلامهم في تراثنا وعلومنا، وهم فرع المستشرقين الذين كانوا يعملون في مؤسسات التبشير التابعة لوزارات الاستعمار، وكانوا مستشارين في شؤون الشرق الأوسط.

وبديهة العقل تقول: إن نتائج دراسات وتوصيات هذا الفرع ليست لصالحنا، وإنما هي موظفة لصالح أمته وأهدافها في استعمار بلادنا والسيطرة عليها، وليس في هذا مجال لما نُسمِّيه الحياد الفكري ولا المنهج العلمي، وكانت توصيات هؤلاء وتقاريرهم تؤكد حقيقة واحدة يُجمِع عليها أولُهم وآخرُهم، وهي ضرورة ضرب الحضارة الإسلامية وتفتيتها والقضاء عليها، لأنها هي أساس الوحدة الجامعة لأمة الإسلام على اختلاف شعوبهم وأجناسهم وتباعد ديارهم، وإن تفريق المسلمين شعوبًا وأقطارًا، بتجزئة بلادهم هذه التجزئة التي فرضها علينا المستعمرون بعد الحرب العالمية الأولى غير كافية في فَصْمِ العُرْوَة التي تجمع أبيضَهم وأسودَهم.

والحضارة الإسلامية لها عُمُدٌ وأركان قامت عليها، وهي علوم العربية والإسلام، وعلوم العربية جزء من العلوم الإسلامية، والرابطة بين العلوم العربية والإسلامية رابطة عضوية كعلاقة اليد باليد، وبها صارت هذه العلوم وحدةً واحدةً، إذا أسقطوا منها عِلْمًا تَدَاعَتْ له سائر العُلُومِ، لأننا لا نتصور دراسة فقه بعيدة عن اللغة، كذلك لا يقوم النظر في التفسير ولا في الحديث إلا على اللغة، والضرب في العلوم الإسلامية يستفز المسلمين ويهيِّجُهم، ولكن ضرب علوم اللغة بما يسمونه «منجزات العصر» يعني الفكر الغربي نحو الهدف من غير ضجيج، وتحت أسماء مغرية، مثل: التحديث، التطوير، الإحياء، التجديد... إلى آخره.

وبهذا ينقض الأساس الذي بُنيَت عليه الحضارة الإسلامية، وهذا شيء مما كانت تقوم عليه توصيات وتقارير المستشرقين الذين يعملون في مؤسسات الاستعمار منذ بداية القرن التاسع عشر، وربما قبله، ولايزال هذا الأصل قائمًا في علاقات القوم بنا، وهو حاضر في نفوسهم لا يغيب عنها، وخاصة عند من لهم صلة بشؤوننا من رجالهم، ثم إن انقطاع هذا الفرع من المستشرقين لدراسة علومنا ومجتمعاتنا أكد لهم أمرًا يجب أن يكون حاضرًا في نفوسنا، وهو أن هذه العلوم هي الجانب التحليلي والفقهي لدين الله، لأننا لا نستطيع أن نعبد الله كما أمرنا أن نعبده إلا بالنظر في كلامه سبحانه، وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وهو معرفة أصول هذه العلوم، وبهذا يؤول الأمر إلى أن يكون ضرب علوم العربية الذي يلح عليه الصغار منا والكبار مُفضِيًا إلى العجز عن النظر في كلام الله، وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وبهذا يدخل الفساد في الدين، ويسقط من أيدينا حبل الله المتين.

ولا تعترض عليَّ بأن هناك أممًا إسلامية لا تعرف اللسان العربي ولا علومه، لأني أَرُدُّ اعتراضك هذا بأنهم يأخذون عنا نحن أصحابَ اللسان فَهْمَ الدِّينِ، وقد أدرك أعداؤنا أن الحضارة الإسلامية التي هي مجموعة علوم ومعارف وقيم، والتي طبعت سلوك المجتمعات الإسلامية بطابع خاص؛ هي التجسيد الفقهي والثقافي والحضاري لدين الله، وأن ضرب هذا الدين من جهتها هو الغاية الحقيقية، وكان هذا ظاهرًا أيضًا في تقارير هؤلاء المستشرقين

وتوصياتهم للجهات التي تستهدف السيطرة علينا، وتسلك السبل إلى غاياتها بالدراسة والفهم والعلم.

وبهذا يظهر أن الهجوم على علوم العربية والذي ذكرنا إشارات موجزة دالة عليه، وقلنا: إنه أمر غريب في تاريخ الأمم وتاريخ العلوم، أقول: هذا الهجوم خارج عن دائرة البحث العلمي، وداخل في باب سياسة استعمارية قديمة، ولاتزال أصولها قائمة في صدور ورثة هذه السياسة في الأمم الأخرى.

ويجب بجانب هذا أن تتعرف على تاريخ الرجال الذين كانوا من أوائل من تكلموا في هذا الاتجاه منا، ويكفي أن أذكر إشارةً موجزةً هي أن مِنْ أكابر رجال هذا الاتجاه مَنْ كانوا أعضاء أوائل في الأحزاب الشيوعية العربية، ومنها الحزب الشيوعي المصري الذي أسسه يهودي صهيوني، وقد خرج هذا الحزب قبل سنة ١٩٤٨م في شوارع قاهرة المعز يطالبُ بإنشاء وطن قومي لليهود، فخرج عليهم العامة يريدون الفتك بهم، وكان منهم سلامة موسى، وهو رجل وثيق الصلة بكثير من الروَّاد، وكل رائد من الروَّاد يجتهد أن يصل حباله به وإلى الآن.

وهذه الصواعق المرسلة الآن على علومنا، والتي يقوم بها من يوصفون بأنهم دعاة التَّنْوِير، هي في الحقيقة بأيدي بقايا من دراويش هؤلاء «الحرس الشيوعي القديم»، ولا أعرف واحدًا يدعو إلى ما يدعون إليه، وفي صدره إيمان بغيب يدل عليه كلام أو فعل، ثم إنهم في أوساطهم العلمية معروفون بالمجاهرة

في مخالفات أصول الآداب الإسلامية، وإنهم جميعًا يجاهرون بالفِطْرِ في رمضان، ويجبُ أن يضاف هذا كله بعضه إلى بعض، لتظهر صورة الحقائق الغائبة، وقد تقف معي حائرًا حين ترى وسائل التوجيه الثقافي والفكري في كثير من أقطارنا في أيديهم، وإنما ذكرت فطرهم في رمضان، لا لأن أردّ آراءهم بذلك، وإنما لأُعِين على معرفة حقيقتهم.

ثم إني على يقين من أن بعض الأغْرَار من الغلمان الذين يحطبون في هذا الوادي لَيْسُوا منظومين في هذا السلك الخبيث، وإنما هم تلاميذ عجزوا عن فهم علومنا، وليس عندهم طاقة ليصبروا عليها، فاختصروا الطريق بالهجوم عليها، ووضعوا في أفواههم متونًا من معارف سطحية على غير بصيرة، وقد استهواهم أن يقال عنهم: إنهم حَدَاثيون، وإنهم غير جَامِدين، وإنهم أحرار مُتَنَوِّرون، مثقفون، إلى آخر هذا اللَّغْو، ولو علموا أن الحداثة فرع من الماركسية، التي تلتقي مع الصهيونية في أرومة عدائية واحدة، لَهَالَهم ذلك، ولرجعوا عن هذا العبث، ولأدركوا أنهم كالأطفال الذين تسللوا في غفلة أمهاتهم إلى أمكنة محظورة ليعبثوا في أنابيب الغاز، أو في صيدلية الدواء، وهؤلاء الأغْرَار المضللون يتكاثرون في هذه الأيام، لسبب واحد هو سقوط وسائل التوجيه الثقافي والإعلامي في أيدي عصابة أحفاد الحرس الشيوعي القديم.

ويقابل هذا الموقف الرافض للتراث رفضًا كليًا، موقف لآخر انكفأ على

التراث انكفاءً كاملا، وأغمض عينيه وسد أذنيه عن كل ما يدور حوله لاعتقاده أنه فساد، واكتفى عامة هذا الاتجاه باسْتِيعَاب العلوم وشرحها للأجيال، ورياضتهم على دروب فهمها وتفهيمها، وهذا عملٌ جيدٌ جدًا، ويعني استمرار وتواصل هذه المعارف، حتى لا تنقطع سلسلة توارثها، أما ما وراء ذلك من الاجتهاد في نفث الروح في هذه العلوم وإحيائها ونقلها من صيغ العصور القديمة إلى العصر الذي نعيشه، على وجه مدروس، يحفظ لها جوهرها وصفاءها، ويجلي تجلياتها، ويدنيها من فكر الجيل الحاضر كما كان يفعل علماؤنا في الأطوار التاريخية المختلفة، كل ذلك قصَّر فيه هذا الاتجاه، إلا بعض الأعمال المتناثرة التائهة في بحر الركود الذي ترانا فيه غرقى.

وقد كان كل جيل من أجيال علمائنا يكتب هذه العلوم كتابة جديدة مجتهدة، ويقدمها لجيله، يفرغ فيها نفسه وعقله وعصره، وروح زمانه الذي عاش فيه، ولم يكتف جيلٌ بالذي كتبه الجيل السابق، وإنما تابعوا واستدركوا وحققوا واستخرجوا وهذبوا ورجحوا وناقشوا، وكلُّ جيل وضع بصمته على هذه العلوم. ترى ابن هشام يكتب النحو الذي كتبه سيبويه، وكتبته أجيال بعد سيبويه، ومع هذه الكثرة وهذا التنوع تجد كتابات ابن هشام متميزة بروحه وروح زمانه، تراه يقدم المادة النحوية تقديما آخر، لم يطالب طلاب العلم في زمانه أن يحصِّلوا النحو من شروح كتاب سيبويه، وإنما كتب كتابات فيها لمع وإضاءات، وفيها نبض الزمان الذي يعيشه، ثم هذه الكتابات تأخذ بيد

الطالب خطوة على طريق المراجع الأم، ولايزال الطالب ينتقل من زمنه إلى الزمن الذي سبقه حتى يلتقي كتاب سيبويه، وهو قادر على فهمه.

وهكذا تَخَرَّجَ العلماء، وهكذا فعل غير ابن هشام، ترى أجيال الفقهاء يتبع بعضهم بعضًا جيلًا بعد جيل، وكل جيل يأخذ معارف من سبقوه ويقدمها لزمانه بلغته هو، وإضافاته هو، ويثير غوامضها، ويبسط مجملها، ويشرح مبهمها، ونرى المادة العلمية التي كتبوها وإن كانت تلتقي في الأصول والثوابت مع من قبلهم، إلا إنهم وضعوا عليها ميسمهم وميسم زمانهم، وقَرَّبُوها من جيلهم ونفثوا فيها من أرواحهم وفهومهم، إلى آخر هذا الباب المتسع الذي يشرحه لك.

لك أن تتأمل كيف صاغ الفارسي علم سيبويه، وكيف انتقل به من طور إلى طور، أو تتأمل ما صنعه الخطيب القزويني في كتاب "المفتاح"، واحذر أن تنظر نظرًا سطحيًا فتستهين بما لا يُستهان به.

ثم إن هذا هو الطريق الذي سلكه علماء الأمم كلها، وقد سبق أن ذكرت أن كتّاب الأمم الأوروبية الذين ترجع أصول حضارتهم إلى الأصول اليونانية، لايزالون يتواترون على شرح أفلاطون وأرسطو وسوفيكليس وهوميروس وأريستوفان، وغيرهم ممن وصفوا علوم اليونان، ولم يكتف جيل بشرح الجيل الذي سبقه، بل لم يكتف كاتب في زمن بشروح الكتّاب الذين يعيشون معه، وإنما كل له مَلْحَظٌ وله بصيرة وله فهمه ولُمُعُهُ ونفحاته وتجلياته، وبهذا تتكاثر

المعرفة، وتعظم، وتتنوع، وتعيش في قلب الزمن الحي، ولم تعد تراثًا تاريخيًا، وإنما فكر حاضر، يؤثر ويتأثر، ويحيي العقول الحية، وتحييه العقول الحية، يعيش في حوار مع العقل الحي جيلًا بعد جيل، يغذيها وتغذيه، ويزدهر بها وتزدهر به، ويشرق فيها بعبقه القديم، وتشرق هي فيه بسخائها الحاضر.

ولهذا وغيره قلت: إن صياغة المعرفة بروح العصر ليست مهمةً سهلةً وليس كما يتصوره الذين يعيشون مستريحين بعيدًا عن مَعْمَعَاتِ الصراع، حيث يحسبون أن المسألة تنتهي بأن تضعَ الكتابَ القديم بين يديك، وأن تتقن أسلوبه، يعني تفهمه وتلخصه، أو تكتب مادته كما هي بأسلوب سهل، لا ليس هذا مما نحن فيه، لأن نقل المعرفة من طور إلى طور لا يتأتى إلا لأفراد الزمان، وهم الرجال المنقطعون الصابرون المثابرون، وقد أصبح هذا واجبًا علينا، وهو فرض في أعناق القادرين عليه، لأن الطَّفْرة الاجتماعية التي نعيشها باعدت كثيرًا بين جيلنا والصيغ القديمة، وكان جيل ابن هشام أَقْدَر على قراءة من سبقه من جيلنا هذا، الذي أصبح ترويضه على معرفة علوم أمته وأصول حضارته أمرًا محتاجًا إلى جهاد ومكابدة، ولا ينهض بذلك إلا أهل العلم. ولأجل ما فيه من مشقة ومكابدة، وحاجته إلى صبر وانقطاع؛ فضَّل الله الذين أوتوا العلم درجات، ولو كان الأمر سهلًا رَهْوًا كما نظنه لما كان هناك وجه لهذا التفضيل.

قلت: إن جيلنا لم يقم بهذه الفريضة، واكتفى بالمحافظة على علومنا،

يَفْقَهها ويُفَقِّهها، لأنه رآها في قلب عاصفة من جهنم تكتسحها اكتساحًا، وتجتثها اجتثاثًا بوحشية، وبروح بربرية لا تقيم للعقل ولا للحق ميزانًا.

وهناك اتجاه ثالث جاء وسطًا بين هذين الاتجاهين، وهو ما يراد بالأصالة والمعاصرة، ويتمثل في إضافة مختارات من الفكر الغربي إلى مقالة علمائنا، وترى عبدالقاهر وكروتشة وابن جني وتشومسكي وسيبويه، إلى آخر ما ترى.

ثم إنك ترى كثيرًا من رجال هذا الباب يضعون المُقْتبسَات الغربية موضع الشاهد والدليل، فإذا وافقت هذه المقتبسات كلام علمائنا صح بهذه الموافقة كلامُهم، وإذا خالفت سقط بهذه المخالفة كلامُهم.

وهذا الاتجاه صار الآن غالبًا، ويتبعه نفر كثير من الباحثين والأساتذة، وَيَسْتروِحُ له جمهور متسع من طلاب العلم والناشئين، وخصوصًا حين يصادفون نصوصًا غربية تشابه كلام علمائنا، ويشعر القارئ حينئذ بنشوة ممتعة، لأن شيوخنا الأوائل كان عندهم علم «بالتناص» مثلًا. ولغلبة هذا الأمر رأيت بعض الباحثين الفضلاء كتبوا كتبًا ليس لهم فيها دراسات، وإنما هي اختياراتٌ من نُصُوصِ علمائنا، وضعت لها عناوين من قضايا الفكر الغربي، أو هي نصوصٌ شابهت كلام النقَّاد الأوروبيين، أو تراءت نارها لمن يطل عليها من القباب الرومية.

وليس من السهل أن تهاجم هذا الاتجاه إن كنت ترى فيه اختلالًا، لأن أتباعه ليسوا من الماركسيين، ولا ضُلال نصارى العرب، ولا ملحدين كأتباع

التيار الأول، وإنما هم مؤمنون بأهمية التراث، ويرون في هذه الخطرات المتشابهة مع فكر الآخرين إشارة إلى بقايا الحياة في بقاياه، وهذا طارد لليأس وفقدان الثقة الذي طالما ألح على تثبيته الاتجاه الأول، ثم إنه يمكننا إحياء علومنا بإضافة هذه المقتبسات إلى ما عندنا، وهذه المقتبسات شاهد صدق، ودليل لا يتطرق إليه شك على صحة ما قاله علماؤنا، لأنها من كلام الأمم المتقدمة، وهذا حسبها.

وهناك فكرةٌ تُذْكَرُ كشاهد لتثبيت هذا الاتجاه، وهي أن علماءنا في العصر العباسي نقلوا علوم اليونان، وأفادوا منها في تصانيفهم، لأنها علمتهم التبويب والتنظيم والمنهج، وكانت عُلومُهم كأنها أكوامٌ من المعرفة، لا يُعْرَف منها رأسٌ من قدم، وهذه فكرة غريبة ومشبوهة، وقد ملأت الكتب، وألحَّت على عقول أبنائنا، وفي مراحل التعليم الأولى، حتى تثبت ولا يسهل زحزحتها أو التشكيك فيها، ولم أعرف أن علماءنا أشاروا إليها، وهم الذين نقلوا العلوم، وهم الذين أفادوا، وهم الذين تعلَّموا التبويب والتصنيف، لم أجد كلمةً واحدةً شاردةً ولا واردةً لعالم منهم، لا في عصر الترجمة، ولا في القرون التي بعده إلى زماننا هذا تدل على أن علماء المسلمين تعلَّموا التصنيف والتبويب والمنهج من ثقافة اليونان. ولا يتصور عاقلٌ أن تكون العقولُ التي أبدعت المعرفة وصنَّفتها واستخرجتها عاجزة عن تبويبها وتصنيفها.

أقول: هذه فكرة غريبة وشاذة وغير معقولة، وإنما أشاعها في هذا العصر

من أرادوا أن يقنعوا العقل الإسلامي بالأخذ عن الآخرين، وباهتزاز الثقة في علمائه وحضارته، وأن يوحوا إليه أن آباءه الأولين لم يستطيعوا أن يسلكوا دروب المعرفة إلا وهم محمولون على عكّاز يوناني، وكذلك نحن الأحفادَ علينا أن نهتدي بعقول أحفاد من اهتدى آباؤنا بآبائهم.

أبوك أبو جهل وجدك مثله

ولست بخير من أبيك وجدك

ومادام الأمر كذلك فلا يكن في صدرك حرج أن تنير عقلك بنور هؤلاء الأحفاد، فقد نوَّر آباؤهم آباءنا في سالف الدهر.

وإذا وضعت بإزاء هذا ما نقرؤه من الإلحاح على أن العقلية الإسلامية غير قادرة على أن تتخطى أسوار المجهول، وأن قدراتها لا تتجاوز الحركة في المعلوم، وهي عقلية شارحة ومعلقة، وليست مبدعة، ولابد أن يكون بين يديها من المعرفة متنٌ مِن وضع غيرها، لتعمل فيه، وليس في إمكانها أن تصنع لها متنًا، وأن علومها قامت على شرح علوم اليونان، وأن أرسطو لم يكن معلمًا للعرب في الفلسفة والأخلاق فحسب، وإنما كان معلمهم في البيان أيضًا.

ثم إن القول بأن التراث الإسلامي من أَلِفِهِ إلى يَائِهِ غير قادر على تكوين عقلية علمية، وغير قادر على تكوين حس أدبي، وأن من يقرأ الأدب العربي وحده لا أدب له.

أقول: إذا وضعت هذا بإزاء الكلمة الغريبة والشاذة عن الترجمة في العصر

العباسي، وجدت الكلام بعضه من بعض، وكأنه خرج كله من مخرج واحد، وأنه كله يلقي ظلالا من فقدان الثقة في علومنا وعلمائنا، وإذا تذكرت مع هذا مقالة المستشرقين في ضرورة تدمير الحضارة الإسلامية بزلزلة قواعدها التي هي علومها، رأيت هذا امتدادًا لذاك، وتأكد أن كثيرًا من الأفكار الدائرة في زماننا حول عقليتنا وعلومنا محتاجة إلى فحص، وأن كثيرًا منها ملوث.

وإذا عرفنا أن هذا الكلام شاع في الكتب والمقالات والمحاضرات، وطرح في كل مطرح، وصار يتلقى به أبناؤنا في مراحل التعليم المختلفة، إذا عرفنا ذلك رأينا أمورًا تستوجب الوقفة، ولا يجوز أن يمر عليها العاقل مرور الكرام، لأن هذا الشأن ليس فيه مجال لحسن الظن.

وأخيرًا إذا وضعت مذهب الوسط هذا بجوار ذلك كله، وجدته متصالحا مع كل هذا ومُتَوَافِقًا معه.

وإذا كان الاتجاه الأول اتجاهًا مدمِّرًا لحضارتنا، فهذا الاتجاه أشد منه ضَرَاوةً، لأنه مُدمِّرٌ، ولكن بطريقة هادئة لا يسمع فيها الناس انقضاض حصونهم فيستيقظوا، ثم هو يُدمِّرُ فكرة فكرة، لأن الفكر الغربي في داخل هذه المؤلفات لا يسالم الفكر الإسلامي، لأنه دخل دخول المستعلي الذي يملك أن يشهدَ للفكرة العربية بالصلاحية، فتبقى الفكرة، وهي مدينة لهذه الشهادة، أو يشهد عليها بالتخلُّف والفساد، فيخلعها من باب العلم، ويرمي بها في أودية الجهالة والسَّذاجة والسَّطحية.

ولهذا ترى هذه المؤلفات وكأنها لم تُبْنَ على حوار الفكر، وإنما بُنِيَت على الصراع الذي ينتهي دائما لصالح الفكر الآخر، وراجع قراءة هذه المؤلفات، وقد تجد بعضها بني على ذكر صفحتين متقابلتين: صفحة من الفكر الإسلامي وصفحة من الفكر الغربي، مثل كتاب «فن القول» لأمين الخولي، ويقول المؤلف في أسفل الصفحة المأخوذة من كلام علمائنا: انظر لترى وجهًا شاحبًا معروقًا. وفي أسفل الصفحة المأخوذة من الآخر: انظر لترى وجهًا حيًا وحيويًا، وكأنها إعلانات دعاية، وليست كتب علم.

وهذا الاتجاه الذي كثُرَ تابعه كما قلت، ليس له نظير في علوم البشر، ومن قرأ أن أمة أحيت علومها بإدخال علوم الآخرين في شرايينها فليدلنا على ذلك، ومن رأى كتابًا في مشرق الأرض ومغربها قام على أمثال هذه التركيبة والتوليفة الشاذة، فليخبرنا بذلك، ورحم الله الدَّمامِيني الذي قال حين احتج المخالفون على رأي برأي لسيبويه، قال: إنه لا يحتج برأي على رأي، وإنما يحتج بصريح العقل وصريح النظر، وقوة البرهان، وصواب الدليل، وهذا كلام مستقيم جدًا. وقد أورثنا الكسل العقلي رذيلة في تحصيل العلم، وهي متابعة ما عليه جمهور الناس من غير مراجعة، مع أن العلم في جوهره مراجعة، وتدقيق، وليس فيه شيء يحصِّله المرء وهو مغمض العينين، وقد انتهى بنا الكسل العقلي إلى أن صرنا كأسراب الطير، يتبع بعضنا بعضًا، وتَعْجبُ حين تجد أفكارًا كثيرةً فاسدةً وشائعةً عند جمهرة الكاتبين، حتى إنك لتتردَّد وتتخوَّف من مصادمتها،

ولو كان فسادها عندك بيِّنًا كفلق الصبح، إلا أن تقوِّي عزيمتك بما تستيقنه من حق وصدق، وما تستشعره من أمانة العلم. فلا تعبأ بالوقوف في وجه التيار مهما كانت كثرته، ومهما كان سلطانه وعنفه، ومهما كانت «نجومية» رجاله، لأنه في يقينك باطل، والباطل زهوق.

وأمرٌ آخر مكَّن لهذا الاتجاه، هو أنه في غيبة الوعي العلمي شكَّل هذا الاتجاه الفاسد منهجًا قام عليه الدرس في كثير من معاهد العلم، وقام عليه إعداد أجيال بعد أجيال، وأصبح عند هذه الأجيال التي ربيت عليه أصلًا صحيحًا غير قابل للمناقشة، ومكّن له الاتجاه الأول البغيض، والذي تبناه الماركسيون وضلّال النصارى العرب، كما مكّن له أيضًا ركود الاتجاه الثاني واكتفاؤه بالتحصيل والفهم والتفهيم للمعرفة المكتوبة في المتون والشروح، والتي لم يجاهد علماء العصر في نقلها إلى الصور الذهنية الملائمة لإيقاع الزمن، مع المحافظة الكاملة على جوهرها وعلى نقائها.

أقول: كل هذا وغيره مكَّن لهذا الاتجاه واتسع، ومضت إليه الأجيال وهي معصوبة العينين، وهو خطر كله وفساد كله، وليس فيه شيء من الصواب يدعو لمهادنته ومساكنته، وهو خطر على نفوس طلاب العلم الذين يتلقونه بنفوس طرية غَضَّة، لأن الطالب يرى ماضيه وتراثه وتاريخه من خلال هذا النص الشاحب المعروق، على حد عبارة أمين الخولي، وهذا قتل لهذه الذات وتدمير نفسي لا يرحم، ومن الوجهة الأخرى يخلق في أنقاض هذه النفس

المحطمة شعور المهابة والتوقير للفكر الآخر.

ولا أعرف علماء أمة ربّوْا أجيالها على هذا الأصل الدنيء الظالم، ومن أخطر آثاره أنه يورثنا الكسل العقلي، وينسينا الكدح الحر بالعقول الحرة، لأنك تستطيع أن تكون علمًا من أعلامه، وأن تكون مجدِّدًا وصاحب نظرية بقراءة متن من متون علومنا، مثل أن تقرأ في النحو «أوضح المسالك»، وأن تقرأ في البلاغة "شرح المختصر"، ثم تقرأ متنًا من متون علم اللغة أو علم الدلالة أو النقد الأدبي في لغة أخرى، ثم تؤلِّف من المتنين توليفة، وأنت متمدِّد على أريكتك تحتسي قدحًا من الشاي، وبذلك تكون قد جددت النحو أو البلاغة، وتكون صاحب نظرية، ومادام حولك بعض تلاميذك المدربين على صنع الدعاية، فإن هؤلاء سيتحدثون عن نظريتك في دروسهم، ويكتبونها في بحوثهم، ويشيعونها بين الناس، حتى تدخل ما دخل عليه النهار.

وهؤلاء التلاميذ يعرفون حقيقة هذا التجديد، وحقيقة هذه النظريات، إن لم يكن اليوم فغدًا، حين تتوافر معارفهم، وسيسلكون الطريق نفسه، ويصنعون ممن حولهم تلاميذ لهم، ليقوموا بما قاموا به من قبل، ثم يقرؤون متنًا من هنا ومتنين من هناك، ويصنعون نظرية جديدة، وهكذا يتكاثر المجددون، وتتكاثر النظريات، والعلوم تتراجع بدل أن تتقدم، وتخبو بدل أن تَسْطَع.

وليس هذا من خُلُقِ العلم وأهله في شيء، وللعلماء طريق واحد في كل الأمم وفي كل الأجيال، هو الكد والدأب والانقطاع والشغل الدائم الدائب

لخواطر النفس بما يعالجون من مسائل، وتلاميذهم من حولهم يرونهم وهم في معمعان الجد والصدق، يحملون الأمانة حمل الأوفياء البررة، ويطرقون طرق المعرفة بأنفس ما يملكون من عمر وعافية وكد، ويسلكون في شعابها وأدغالها يشقون صعوبات بعد صعوبات، نحو غايات نبيلة، ومن ورائهم تلاميذهم يرون من جدهم وصدقهم وجهدهم، فتعظم في نفوسهم أمانة العلم والصدق والحق، يمضون على هدي شيوخهم الذين هم كأنهم أوتاد الأرض، وهم القوم كل القوم، وهم الهداة وهم الحُدَاة، وأمثال هؤلاء جديرون أن يكونوا صالحين مصلحين، وهم حملة التنوير الحق، وهم الذين تعمر بهم البلاد، ويقتدي بهم العباد، وهم الذين أَسَّسُوا العلوم، وأقاموا الحضارات، وهكذا كان علماؤنا وكان علماء غيرنا ممن أفرغوا في بلادهم نورًا، وأضاءت بهم الظلمات، ورفعوا للعلم المنارات، ذكرنا طرفًا من أخبارهم، وهم المجددون والرواد في عالمنا المتخلف، وفي زماننا الرديء، وقد كثر المجددون وكثر الروَّاد، وكل شيء على ما هو عليه، لا تجديد ولا ريادة، وإنما هو تكثير في سوق «التهويش» القائم في بلادنا.

وأكثر هؤلاء يذهب كل شيء بذهابهم، ويدخل معهم قبورهم، ويدفنون مع كل زيف عاشوا له، إلا أن يروا في بقائه حيًّا مصلحة لمجدد حيٍّ، يربط حباله بمجدِّد ميت.

وقد أطلت الكلام في هذا، لأنه كله دائر حول علاقتنا بتراث الأمم، وقد

جعلته مقدمةً لعلاقات علمائنا بتراث الأمم، كما جعلته مقدمةً لعلاقات علمائنا القدماء بتراث الأمم أيضًا، وأضع هذا بإزاء هذا لدى الجيل الحاضر، ما عليه علماؤنا اليوم في هذه القضية المهمة، وما كان عليه علماؤنا بالأمس.

وأقول: إن النظر التفصيلي لموقف علمائنا من تراث الأمم يحتاج إلى جهود ومراجعة في كل باب من أبواب العلم، وفي كل أصل من أصول المعرفة، وفي كل فرع من فروعها تفصح جلية هذا الأمر الذي دخله لَبْسٌ كثير، وإنما تكون هذه المراجعات من المتخصصين في كل هذه العلوم، لأنهم يعرفون نشأة كل مسألة، وقصة نُموِّها وتكاثرها، وكأنها كانت تتحرك بين أيديهم طورًا بعد طور، يعرفون هذا بإِحْكام وبَيانٍ، ويعرفون كيف كانت تأتيها موجات قويّة من التفكير والنظر، في أطوار معينة، فتنمو وتزدهر، وكيف كانت تنقطع عنها هذه الدفعات، فتقف وتتجمد، ويعرفون مصادر هذا، وما إذا كان من داخلها أو من خارجها، وما إذا كان هذا الخارج من خارج هذا العلم، ولكنه من عائلة العلوم العربية الإسلامية، كأخذ النحاة من الفقهاء، أم أن هذا الخارج وافد من علوم أمم أخرى.

على فرض أن ذلك قد كان، لا يستطيع أن يقضي قضاء عادلًا في مسيرة كل علم وكل مسألة منه، إلا أفراد علمائه الذين عاشوا له، وانقطعوا وراجعوا ورجعوا وقبلوا ورفضوا وأَخذوا وأُخذ عنهم، وهؤلاء قِلَّةٌ قليلة في كل عصر، وهم في كل زمان يشبهون أنبياءه، لأنهم الورثة الذين جاء فيهم الخبر الشريف.

من غير أن أدخل في قصة العلوم عِلْمًا عِلْمًا، وربما أشرت إلى خصوصيات ظاهرة في طبيعة بعض العلوم، تجعل القول بالاستمداد من خارج اللسان في تأصيل معارفها قولًا باطلًا، وإن كان قد شاع، كالقول بأن البلاغة ذات أصول يونانية، وأن أرسطو كان معلم العرب فيها، ومثل هذا وإن كان لا خلاف عند أهل التدقيق في فساده، لايزال يكرره علماء، ويعلمونه تلاميذهم، لأنهم أخذوه عن غير أهل التحقيق، وهم في سنوات الطلب، ولم تتوافر لديهم الوسائل العلمية التي تعينهم على بيان جَلِيَّة الأمر فيه.

ثم إنه لا كلام لنا في علمي الفلسفة والمنطق، لأنهما ليسا من عائلة العلوم العربية والإسلامية، التي يَعْرفُ العلماء أنها أصول الحضارة الإسلامية، ولأنها شرحٌ وتحليلٌ لكلام الله وكلام رسوله ﷺ، وبيان الحلال والحرام، وأكرر أنها السبيل الذي لا نعرف سبيلًا سواه لفهم دين الله، وأن الضرب فيها يعني قطع الطريق الواصل إلى فهم حقيقة دين الله، والنحو في ذلك كالفقه، الذي هو علم الحلال والحرام، والبلاغة والتفسير والعقائد، كل ذلك سواء، بخلاف الفلسفة وعلم المنطق فإنهما لا شأن لهما في هذا الباب.

وقد شغلت الفلسفة حيِّزًا محدودًا في تراث المسلمين، وظلت محصورةً في دائرة محدودة، وقد هجاها كثير من علمائنا، ورفضوها، وجرحوا عقائد من طالت ممارستهم لها.

ومن الحقائق الظاهرة التي يجب أن نستصحبها ونحن نتكلم عن علاقة

علمائنا بتراث الأمم شيوع روح الحذر والاحتياط، والبعد عن التزيد في استنباط أصول المعرفة، فقد كانوا يتوقفون ويراجعون، حتى تتوافر لديهم الشواهد والبراهين التي تؤكد لهم الحقائق التي يؤصلونها، لأنهم يعلمون أن خلاف هذا التأكيد والتوثيق وإقامة الحجة بعد الحجة يفضي إلى الاختلال في فهم كلام الله، لأنها ليست أصولًا لغوية، يكون الخطأ والصواب فيها في دائرة اللغة فحسب، وإنما هي وسيلة لِفَهْم كلام الله، والخطأ فيها ينتقل إلى الخطأ في فَهْم كلام الله، فإذا قلنا: إن "إنّ" تفيد التوكيد؛ فإن هذا يعني أننا نقول: إنها في هذه الجملة القرآنية تفيد التوكيد، يعني أن التوكيد هنا مراد من مرادات الحق جلَّ جلاله، وهذا كلام لا يجترئ عليه إلا من تثبت واستيقن.

وهذا الأمر وحده يكفي في صرف علمائنا عن إدخال أي فكر من علوم الأمم الأخرى في هذا الباب.

وقد أفادوا من الفقهاء ومنهجهم، وكان ابن جني يقول: إنه بنى كلامه في أصول اللغة على كلام الفقهاء في أصول الفقه، وعلم الفقه في تراثنا هو العلم الأعلى، وليس عند الأمم الأخرى مثله، وقد قام النظر فيه على أصل من الاحتياط والضبط في الاستنباط والقياس، وقد تميّز بهذا، وصار عِلْمًا له منهج رفيع ومتقن، حتى إنك ترى هذا العلم وحده قادرًا على تكوين عقل حي يتحلى بأدق أصول المنهج، ضبطًا ولمحًا ونفاذًا. وأصل هذا كله مستمدٌ من رسول الله ﷺ، وطريقة بيانه للقرآن، ومن علماء الصحابة ﷺ، الذين أخذوا

عن رسول الله ﷺ، وقد أفادت العلوم العربية من هذا المنهج، وأمدها بكثير من مزاياه، فقام منهجه على التقصي ودقَّة النَّظر وذكاء الملاحظة، وسلامة القياس وتوفر المراجعة والاستدلال، وغير ذلك مما يقتضيه الضبط والسداد، ومن أراد أن يتعلم المنهج فلينظر إلى كلام الفقهاء، لا ليحصّل المسائل التي يذكرونها فحسب، ولكن ليرى حركة عقولهم وهي تحاور النصوص وتستنبط وتستخرج وتأخذ وتدع وترجِّح، إلى آخر ما في هذا من حيوية عقلية بالغة الدقة والملاحظة، ومن لم يَقْرَأْ كتب الفقه ببصيرة، فلا يجوز له أن يتكلم في تراث المسلمين.

وهذا قلت: إن القول بأن الترجمة في العصر العباسي أفادت المسلمين المنهج، وعلمتهم التبويب والتصنيف من الكلام الذي لا يروّج عند مَنْ عرف دقة النظر عند الفقهاء الذين كانوا هم المعلمين الحقيقيين لعلماء الأمة.

ولا أشك في أن علماءنا كانوا يقرؤون من تراث الأمم كلَّ ما يتاح لهم أن يقرؤوه، لأن طبيعة العقل المشغول بالمعرفة تدعوه إلى أن ينظر في ثمار العقول، وأن يتعرف على تجارب العلماء والأمم، وأن ينظرَ في كل ما يتاح له النظر فيه ليعرف كيف يفكر الآخرون، وماذا يقولون، وهذا أمر في طبع النفس وفي طبع العقل، لا أستطيع أن أتصور أن يكون التراث اليوناني أو غيره منقولًا إلى لغتنا وفي مكتباتنا، وعلماؤنا المنقطعون للبحث والدرس عازفون عن النظر فيه، لأن هذا يخالف الطبائع التي تغلب على أهل العلم، لأنهم أهل التوق الدائم إلى

المعرفة، وقد علمهم الرسول ﷺ أن المعرفة لا وطن لها، وأن الكلمة الحكمة ضالَّة المؤمن، يعني هي كضالَّته التي ينشدها في كل مكان يظن أن تكون قد ذهبت إليه، والضالّة لا تفرِّق بين أرض الكفر وأرض الإسلام، وهكذا الكلمة الحكمة لا وطن لها، ثم إن الباحث عن ضالّته التي فيها متاعه وطعامه وشرابه يبحث عنها بعناية شديدة، ويصرف إليها كل همِّه، وكذلك القلب الحي في بحثه عن الكلمة الحكمة المتضمنة هديًا ورشادًا، يبحث عنها بولع وحب وتوق وصبر وترقب وانقطاع، وهذا وصف رفيع للمؤمن. ولو أن الأمم الإسلامية أشاعت بينها هذا المعنى النبيل المتضمن في تلك الكلمة الجامعة من كلامه ﷺ؛ لكانت مجتمعاتنا على حال غير الحال التي نحن عليها، لأن أمة التخلف ليس لها دواء إلا دواء واحدًا يطب لها، وهو القراءة والبحث الصادق عن الكلمة الصادقة، ووصف الكلمة في الأثر الشريف بالحكمة يبتعد بالعقلية الإسلامية عن الخوض في الزيف والأباطيل، والمعرفة المدسوسة والقائمة على التَلْبِيس والتَدْلِيس والتَهْوِيش، إلى آخر ما يمكن أن يكون في عالم الكلمة إذا زاغت وانحرفت وضلت، وتركت سبيل الحكمة.

إن علماءنا الذين انقطعوا لطلب العلم، وذاقوا حلاوته، ولزموا أبوابه فتحوا آفاقهم لكل علم نافع، وكل فهم صحيح، وكل فكر عالجه أصحابه بصدق وجد وأمانة، ولكنهم مع هذا كله لم يذكروا شيئًا من هذا الفكر الآخر في معالجتهم لعلوم العربية، وإنما اقتبسوا علمها بالمنهج الذي وصفناه من

دلالات اللسان العربي نفسه، وما نطق به أصحاب اللغة، فإذا قالوا بوجوب تقديم الاستفهام فلأن أصحاب اللسان أوجبوا تقديمه، وإذا قالوا بوجوب حذف الخبر في موطن كذا، فلأن أصحاب اللسان فعلوا ذلك، وتأمل أصولهم تجدها قد تأَسَّسَت على طرائق العرب في بناء كلامهم، على وفق مقاصدهم، تأمل قول سيبويه: «كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعْنَى»، تجده مقتبسًا من طرائق القوم ومذاهبهم، وما أسّسُوا عليه كلامهم، وهذا يعني أن علماءنا وهم يستخرجون علومنا لم يكن أمامهم في هذا الشأن لا تراث اليونان الذين قالوا: إن البلاغة اقتبست منه، ولا تراث الهنود الذين قالوا: إن النحو اقتبس منه، وإنما بين أيديهم بيان العرب عن معانيهم وطرائقهم في التلطف إلى هذه المعاني، وهذا أمر ظاهر لكل صاحب نظر علمي جاد، وليس من مقاصده اتهام العقلية الإسلامية، ولا الدفاع عنها، وهذا الذي جعل علمهم صالحًا ورشيدًا وهاديًا إلى معرفة أسرار هذا اللسان إلى يوم الناس هذا، وإلى ما بعد هذا اليوم، مادامت الألسنة جارية بهذه اللغة الشريفة، لأن العلم مادام قد اقتبس منها واستنبط من أحوالها، فلن يتغيّر ولن يحُول.

وكان من ثمرة هذا التوفيق في استمداد أصول اللسان أن تحقق لعلمائنا ما أرادوه، مما هو نتيجة طبيعية لهذا المنهج، وهو تثبيت أحوال اللسان عند هذا المستوى الذي وصلت إليه العربية في زمان نزول الوحي، حتى يظل كلام الله وكلام رسوله ﷺ مفهوما.

وقد كان ذلك، ولا يزال عامة المسلمين في مجتمعاتنا المختلفة يسمعون كلام الله سبحانه، فتخشع له قلوبهم، ويسمعون كلام رسوله ﷺ فتنفعل به نفوسهم، ولو اهتزت هذه الضوابط وتغيَّرت بتغيُّر الأزمنة والأحوال، وانتقل استمداد شواهدها وأصولها من اللسان الذي نزل به القرآن، وتكلم به النبيﷺ؛ لانتهى الأمر مع تغيُّر الأزمنة والأحوال إلى ضعف الصلة بيننا وبين كلام الله سبحانه، وهذا لن يكون، لأن الله سبحانه تعهد بحفظ القرآن: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩)، وهذا الوعد متضمن حفظ اللسان، لأنه يستحيل أن يحفظ القرآن وتضيع لغته، لأن معنى الحفظ أن يظل مقروءًا مفهومًا في الأمة، ولن يكون كذلك إلا ببقاء لغته تدور بها ألسنتنا وتسمعها آذاننا.

ولننظر في تراث محمود بن عمر الزمخشري، لنرى إمامًا في البلاغة والنحو واللغة والغريب والتفسير والحديث والفقه والقراءات، وغير ذلك مما أَلَّف فيه، ولندع كلامه في العقائد، لأن علماءنا قاموا بواجب مناقشته ورده، وإنما ننظر إلى تراثه من هذه الجهة التي نحن فيها، وأنت واجد تراثًا لغويًا حافلًا، يخلو خلوًا كاملًا من أيِّ إشارة إلى أيِّ فكرٍ أعجمي، وإنما اللغة مُستقاةٌ من أفواه أصحابها، وما تكلموا به في بواديهم، وما خطبوا به في نواديهم، وما تراجز به الأعراب وهم يَمْتحون الماء من آبارهم، والنحو مقتبس من صلب اللسان، والبلاغة مقتبسة من مذاهب القوم، وما أودعوه في لغتهم من رقائق المباني التي

أودعوا فيها دقائق المعاني.

لا تستطيع أن ترى شيئًا في كلام الرجل من هذه العلوم يدلك دلالة ما على أن الرجل له علم بعلوم الآخرين، ثم إنه كتب كتابًا ضخمًا سمّاه «ربيع الأبرار»، جمع في هذا الكتاب شيئًا كثيرًا من حِكَمِ الفرس واليونان والهنود وغيرهم من الأمم، وهو مشحون بأسماء الأعلام البارزين في تاريخ كل أمة من هذه الأمم، فيه شعراء وحكماء ومؤرخون ومفكرون وفلاسفة، وقواد جيوش وملوك، وهذا الكتاب كأنه خلاصة تجربة الإنسانية وحكمتها، وقد بُنِيَ على كلام الأعاجم، وهو دالٌّ دلالة قاطعة على أن الزمخشري لم يطلع على تراث الأمم فحسب، وإنما تدبره ووعاه وتمثّله وقيّده في دفاتره، واختار منه هذا السِّفر الضخم، ومن المؤكد أن الزمخشري لم يستخرج هذه الآداب وهذه الحِكَم من تراث الإنسانية إلا بعد أن قرأ تراثهم في اللغة والشعر والتاريخ والوقائع، وقد ذكر من كلام سقراط وأفلاطون وأرسطو حكمًا وآدابًا، وهذا قاطع في أنه قرأ تراث هؤلاء الثلاثة، وهم أعيان العلم وأعلامه في أمتهم، ومع هذا يخلو تراثه العلمي في اللغة والنحو من أيِّ إشارة إلى أيِّ معلومة أعجمية تكون قد سقطت في لسانه، وهو في مَعْمَعَةِ البحث والتنقيب، وقد كتب هذا الكتاب ليستروِح به الذين يقرؤون الكشّاف من عناء النظر ومشقة المتابعة، وقد كتب الكشّاف في آخر حياته رحمه الله، وكتاب «ربيع الأبرار» كتب بعده، وهو كما قلت: سيل يَهْمِي من الحِكَم والآداب والتجارب، لا تتوافر مادته الغزيرة إلا لمن عاش

زمانًا بعد زمان يراجع، وكأنه نفض له تراث الأمم.

وتسمية الكتاب لها دلالةٌ، لأنه نظر إلى ما فيه جانب السهولة والعذوبة والغزارة، فسمّاه «ربيعًا» لنضارته وغضارته، ثم ذكر «الأبرار» للإشارة إلى طلّاب العلم المتبدئين في قراءة الكشّاف، وكان الكتاب الذي هو الكشّاف مع إملائه وتنوعه ومشقة تحصيله، لا يزال في متناول المبتدئين.

وبالمناسبة أذكر شيئًا في هذا يذكرنا بما قلته من أن علماءنا كانوا ينظرون إلى الأجيال، ويجتهدون في تقريب المعرفة العربية والإسلامية إليهم، وكانت مسألة انتقال العلم إلى الجيل الثاني الممثل في التلاميذ مسألة أساسية لم يغفلوا عنها أبدًا، أقول بهذه المناسبة: إن يحيى بن حمزة العلوي لمّا بدأ يقرأ لطلابه كتاب الكشّاف وجدهم قد ضعفوا عن حمله، وكان قد مضى على زمن الزمخشري ما يقارب قرنين، فكتب لتلاميذه الذين يدرِّس لهم كتاب الكشّاف، كتابه «الطراز المتضمن لعلوم البلاغة وحقائق الإعجاز»، ليحصِّلوه أولًا، ثم ينتقلوا إلى كتاب الكشّاف.

وقد جعلت هذا معترضًا، لأشير إلى هموم أهل العلم بالأجيال اللاحقة وبمسألة توريث العلم لهم، وإعدادهم لتنتقل إليهم المعارف والعلم الشريف، وعمل ما يلزم لهذا، وملاحظة التطور الزمني والتغيّر الثقافي يفعل فعله في الأجيال.

وأعود إلى المسألة وأقول: إن الزمخشري كان عالمًا بالفارسية، لأنها لغته

ولغة من حوله، ولم يكن الزمخشري من سلالة عربية، وإن كان عربي القلب واللسان، وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، وبعدما نزلت كلمة الله في العرب لم تبق العروبة جنسًا، وإنما صارت دِينًا ولغةً وثقافةً وأدبًا وحضارةً، ومن دخل في دين الله وجرى لسانه بهذه العربية الشريفة وثَقِفَ شعرها وأدبها وعلومها، وجرت خواطره على مذاهبها فهو عربي، وفي الأثر: من تكلَّم بلسان العربية فهو عربي، وإنما قال: بلسان العربية، ولم يقل: بلسان العرب، لأن العرب قد يختل لسانهم عن عربيتهم الشريفة العالية؛ فجعل العربية الشريفة التي نزل بها القرآن، وتكلم بها النبي ﷺ هي الجنس، ثم إن آية الأحزاب: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ ﴾ (الأحزاب:٦)، حسبت المؤمنين من بيت النبوة، لأن رسول الله ﷺ أولى بهم، وهو أبٌ لهم كما في بعض القراءات، وهم أبناء أمهات المؤمنين، وهذا يلتقي مع ما في سورة الحجرات: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾(الحجرات:١٠) ، وهذا كله يجعل هذا الدين هو الشريعة، هو الأم والأب وهو الجنس، ولهذا لا يستساغ أن نقول: إن عبدالقاهر الذي علمنا كيف نذوق العربية أعجمي، وكذلك أبوعلي الفارسي، وأبوالفتح الرومي، ومحمود بن عمر الخوارزمي، نعم هو فارسي ولكنه عربي، وهذا رومي ولكنه عربي، وهذه مسألة أشرت إليها، لأن كثيرًا من الكتب تحب أن تذكر طبقات من علمائنا وتسميهم الأعاجم، وأنهم أفسدوا العربية لفقدانهم ذوقها، وهو كلام محتاج إلى أن يدقق، لأن العجمة معناها عدم الإبانة، وليس المراد بها

الجنس المغاير للعرب، وقد ذكر المصطفى ﷺ أن سلمان الفارسي من أهل البيت.

وكان الزمخشري بحكم الفارسية يعرف علومها، وطرائق اشتقاقها، وأصول نحوها وبلاغتها، وقد قرأت كتاب «ديوان الأدب»، وهو مخطوط ورأيته مكتوبًا باللغتين العربية والفارسية، سطر مكتوب بالعربية وترجمته في السطر الذي يليه بالفارسية، وهكذا. وكان كل هذا جديرًا بأن يغري الرجل بأن يذكر ولو من باب الموازنة قاعدة فارسية في النحو، أو في البلاغة أو في أي باب، ولكن تراثه خلا خلوًا كاملًا من أية فكرة أعجمية، لحرص هؤلاء الكَمَلَة رضوان الله عليهم على ألا تهجن هذه اللغة، وأن تظل عروبتها نقية خالصة، وكان يوغل في البداوة في اقتباس شواهده، فيلتقطها من أفواه الأعراب الخلّص، ويوغل حتى يأتي بها من قراضبة نجد وسماسرة تهامة، كما كان يقول: هذا خبر الزمخشري.

وكان ابن جني روميًا يونانيًا، وكان قريب العهد بروميته، وكان التراث اليوناني مطروحًا في كل مطرح حول أبي الفتح، وكانت حداثة عهده بروميته جديرة بأن تغريه بأن يقتبس منه قبسة من هنا أو قبسة من هناك، وكان في العربية مجتهدًا، انتقل بتراثها إلى طور جديد رفيع، وكان حين ينغل في دقائقها تعظم في نفسه، وكان في بيئته علماء لغات، وكان شيخه أبوعلي الفارسي من المتمكنين في غير العربية، كان أبوالفتح يتوق إلى الموازنات بين العربية في

رقائقها ودقائقها، وما تنطوي عليه اللغات الأخرى في أصول بيانها، وكان يفاتح الشيخ أبا علي في هذه الموازنات، فيذكر له الشيخ أن من أحكم العربية وعلم غيرها لا تصح عنده هذه الموازنات، لأن العربية اختصت بحكمة في مبانيها، ولا يوجد شيء من هذه الحكمة في غيرها من اللغات، مع أن الفارسية التي كان أبوعلي متبحرًا فيها، كانت لغة حضارة وملك ورياسة ودواوين وكتاب وشعراء، وكانت متسعة، وكانوا يقولون: إن العربية المقتبسة من أفواه الأعراب وقراضبة الخرائب، أرفع منالًا، وأعز سلطانًا، وأغزر بيانًا، وأدقّ حكمة. «والقراضبة: هم اللصوص. وإنما اقتبسوا من أفواههم، لأنهم يوغلون في البداوة».

هذه الكوكبة من علماء اللغات الذين كانوا في بغداد، وكانت بغداد بهم كأنها مجمع علمي لشتى اللغات والثقافات والحضارات، كل هؤلاء لم يُدخِلوا في تراثهم الذي كتبوه في العربية وعلومها فكرة واحدة مما علموه في لغاتهم وعلومهم، وذلك للسبب الذي قدمناه.

وقد أدخل هؤلاء العلماء أنفسهم مقتبسات من علوم العربية في دراساتهم للغة الفارسية، حتى صارت البلاغة الفارسية كأنها باب من أبواب البلاغة العربية، وحين تنقل هذه البلاغة الفارسية إلى العربية تراها مختصرًا من بلاغة العربية، وليس هذا مغايرًا لما قلناه من أن البلاغة مستخرجة من صلب دلالة اللسان العربي، لأن الجزء الذي نقل إلى الفارسية كان في البديع والتشبيهات

والمجازات، مما تشترك فيه اللغات، وأما علم المعاني الذي هو جوهر البيان وجوهر صناعة الشعر فذلك شيء آخر، وهو خاصٌّ بالعربية، لا ينقل إلى غيرها.

وهناك عالم من علمائنا يفرض نفسه فرضًا على من يفتح باب الحديث في صلة علمائنا بتراث الأمم، هذا العالم هو القاضي الأكرم جمال الدين علي بن يوسف القفطي، ينتهي نسبه إلى تيم بن شيبان بن ثعلبة، من بكر بن وائل، وأمه بدوية من عرب قضاعة، وقد نسب إلى «قفط» بلدة في صعيد مصر عاش فيها، وقد ذكر أنه في أيام صباه ارتقى سطح الدار لبعض شغله، فوقعت عينه على جاريتين للجار، مذكورتين بالجمال والنعمة، وقال القاضي: كانتا من أحسن بنات الأرض، فشُغِل خاطر الصبي بهما، وفي لحظة شغل خاطره تنشد أمه قول الأحوص الأنصاري:

ثِنتان لا أرضى انِتهَاكَهُمَا

عِرْسُ الخَلِيلِ وَجَارَةُ الجَنْبِ

قال: فكأن ماءً صُب على نار، ولم أرق سطح الدار بعد ذلك أبدًا.

وقد كانت للقاضي مكتبة وصفها ياقوت بأنه لم ير مثلها، حتى كأنه ليس هناك كتاب في الأرض إلا وعند القاضي منه نسخة، وكان ياقوت قد عاش في دار القاضي زمنًا، وانتفع بهذه المكتبة، وكانت عامرة بنوادر المخطوطات اليونانية، فيها مقالات كثيرة لأرسطو وبطليموس الفلوذي، وغيرهما من مؤسِّسي علوم اليونان، وكانت هذه المخطوطات قد فقدت من خزائن اليونان،

وذكر القاضي ذلك واجتهد في تحصيلها، وقد انعكس هذا الآن، وصارت مخطوطاتنا مفقودة من خزائننا، وهي في مكتبات أوروبا، وكأن الزمان يدور بكل أحداثه ومكوِّناته، بالأمس كان لنا، هو اليوم علينا، وغدًا سيكون لنا إن شاء الله.

وكان القفطي يغلب عليه التاريخ، وله مؤلفات في العقائد والسُّنَّة واللغة والنحو، لأن المؤرخ لتاريخ الإسلام محتاج إلى العلم بكل العلوم العربية والإسلامية، وهو محتاج إلى الشعر والرواية والغريب، لأن كثيرًا، من الأيام والوقائع لا مصدر لها إلا الشعر، وهو محتاج إلى النحو والبلاغة والعقائد، لأن كثيرًا من الأحداث والوقائع كانت بسبب الفِرَق، وفهم الفرق وعقائدها جزء من التاريخ، ولهذا كان المؤرخ كأنه «دائرة معارف»، وحسبك أن الطبري مؤرخ، وابن كثير مؤرخ، وابن الأثير مؤرخ، والقاضي، إلى آخره.

وقد ذكر ياقوت أنه كان يلازم منزل القاضي، ويحضر مجالسه مع العلماء، قال: فما رأيت أحدًا فاتحه في فن من فنون العلم كالنحو واللغة والفقه والحديث وعلوم القرآن والمنطق والأصول والرياضة والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل، بل وجميع فنون العلم على الإطلاق؛ إلا قام فيها أحسن قيام، وانتظم في وسط عقد علمائها أحسن انتظام» (معجم الأدباء ١٥/ ١٧٩).

وقد أَلَّف القاضي الأكرم كتابًا سمّاه «أخبار الحكماء»، ذكر فيه النابهين في تاريخ الأمم في كل فرع من فروع المعرفة نبغ فيه نابغ، غير متقيد لا بزمان، ولا بمكان، ولا بجنس، ولا بفرع من فروع المعرفة دون فرع، وإنما ذكر الفرس مع

اليونان مع الفراعين الأول، كما ذكر الأطباء والرياضيين والفلاسفة والشعراء واللغويين، كأنه يؤرِّخ للنبوغ الإنساني أو للعقل الإنساني المتفوق، لاغيًا كل الفروق حتى الدين، فأرّخ لأقوام من الكفرة، وذكر كفرهم وذكر نبوغهم فيما نبغوا فيه، وكأنه كان يحتضن العقل الإنساني الذي قدَّم للبشرية تحفًا ومن أي لون ناسيًا الجنس والزمان والمكان والعقائد والقوميات، وكل ما يفصل الإنسان عن الإنسان، أهمل الشيخ كل هذا، ورماه دبر أذنه، وأقبل على الإنسان، ناظرًا إلى تفوقه لا غير، وكتب صفحات مشرقة دلت على سمو فكر، وغزارة علم، وسماحة نفس لا حدود لها، وقلما تجد هذه الروح السمحة عند غير علمائنا الذين برئوا من الحقد على الأمم وثقافات الأمم وعلوم الأمم.

والأكثر من هذا والأجلّ منه أن الشيخ لم يكن يؤرِّخ لهؤلاء الأفذاذ في فروع المعرفة المختلفة وهو بمعزل عن علومهم، وإنما كان يداخل معارفهم ويعقِّب ويحاور، وكأنه كما وصفه ياقوت: "طبيب مع الأطباء، رياضي مع الرياضيين، متفلسف مع الفلاسفة، فلكي مع الفلكيين"، وقد ذكر القفطي قصة دخول التراث اليوناني في بلاد الإسلام، وأن ذلك كان بسبب رؤيا رآها المأمون بن هارون الرشيد، رأى في منامه أرسطو كما وصفته الكتب، أبيض، مشربًا بحمرة، أجلح الرأس، أشهل العينين. وقد سأله المأمون قال له: أيها الحكيم، ما الحسن؟ فقال: ما حسَّنه العقل، فقال المأمون: ثم ماذا؟ قال: ما حسّنه الشرع، فقال المأمون: ثم ماذا؟ قال: ثم لا ثم، فلما أصبح طلب من ملك الروم كتب

اليونان، فطلبها ملك الروم في بلاده فلم يهتد إليها، فاغتم لهذا، وكان المأمون قد انتصر عليه، والرجل يريد مُصَانَعَة المأمون، وقال: يطلب مني ملك المسلمين تراث سلفي فلم يجده. أي شيء يبقى لهذه الفرقة الرومية عند المسلمين بعد ذلك؟ وتأمل هذه الكلمة؛ كأن الروم فرقة، والمسلمين هم الناس.

ولمّا علم أحد الرهبان بهذا قال: أيها الملك إني دالك عليها، هي في البيت المقفل، وكان الروم لما دخلوا في النصرانية قد جمعوا تراثهم القديم كله، وخافوا على عقيدتهم منه، وأودعوه في هيكلهم الذي كانوا يتعبدون فيه، ووضعوا على بابه قفلًا، واتفقوا على أن يضع كل ملك من ملوك الروم قفلًا على هذا الباب، وذلك توكيد لحبس هذا التراث، ولما طال الزمن نسي الناس هذه القصة واعتقدوا أن هذا البيت المقفل فيه كنوز الذهب، وأن على كل ملك أن يضع عليه قفلًا، إشارة إلى أنه أحسن في رعاية قومه، وحفظَ لهم ثروتهم، وأدى لهم أمانتهم، وبقي خبر هذا البيت عند هذا الراهب، ولمّا حدّث به الملك، جمع الملك أهل الرأي، وفتحوا البيت فوجدوه كما قال الراهب، وقدروا الكتب بحمل مائة بعير، وقال الملك للراهب: هل عليّ من إثم إذا أعطيت ملك المسلمين حاجته من هذه الكتب؟ فقال الراهب: لا إثم عليك في هذا، بل مأجور إن فعلت، لأن هذه الكتب لا تدخل على أهل دين إلا زلزلت عقائدهم، وزلزلة عقائد المسلمين عمل من أعمال البرِّ يرضاها الرب.

فأنفذ ملك الروم منها خمسة أحمال من الإبل من جنب واحد من غير ترتيب ولا نظام، فلما دخلت بلاد الإسلام جمع لها المأمون التراجمة فنقلوها إلى العربية، ولوحظ أن في كثير منها نقصًا، لأنها أخذت من جنب واحد، وأن نقصها ظل باقيًا إلى اليوم، لذا كتب فيه القفطي هذه القصة، وهذه القصة تدل دلالة ظاهرة على أن المسيحية أصرت على إبعاد الفكر المغاير، وأنها لابد أن تعيش وحدها في عقول وقلوب أتباعها، لا تنازعها هذه العقول وهذه القلوب ثقافة أخرى ولا علوم أخرى، وأنها رفضت المناقشة والحوار، ووقفت موقفا متشدِّدًا من الأمس بالنسبة لمن اعتنقوها، ولم تقبل شيئًا من تراث آبائهم، ولم تقبل إلا إبعاده وحبسه، وأن يقفل عليه بالأقفال، وأنه من دلائل إخلاص الحكام لأمتهم محافظتهم على عقيدتهم، والرمز إلى هذا بزيادة قفل على الباب الذي يحبس الفكر الآخر، ولم تفرق بين العلوم المتصلة بالعقائد والإلهيات وعلوم الطبيعة، وفي هذا التراث المحبوس ما لا صلة له بالعقيدة، كالرياضيات والطب وعلوم الهيئة، وغير ذلك من عائلة العلوم المحايدة، والتي تحاول أن تغيِّر الإنسان، لا أن تجاذبه عقيدته وثقافته وعلومه وسلوكه، وإنما هي علوم تعمل وحدها بقوانينها خارج الإنسان.

وإذا قارنت هذا بمواقف الإسلام من علوم الأمم وجدت الفرق الهائل، مع أن ضلال النصارى والشيوعيين والعلمانيين وفرع الملحدين في بلادنا يتجاهلون حقائق التاريخ ويزيِّفونها، ويكذبون ويهاجمون الإسلام متسترين

بالهجوم على علومنا وتراثنا، ويصفون الاتجاه الثاني بأنه اتجاه منغلق يرفض الفكر الآخر، ويتقوقع على نفسه، إلى آخر ما تراه من قلب الحقائق، والكذب الذي لا يُستحى من كشفه، وإظهار مغالطاته.

هذه واحدة، والثانية هي أن الراهب القديم أغرى ملك الروم بأن يرسل هذه القافلة من الغزو الفكري لديار الإسلام، ليزلزل عقائدها كما قال، لاعتقاده أن قوة المسلمين ودولتهم التي تخافها الفرقة الرومية يرجع أمرها إلى هذه العقيدة، فإذا زلزلها هذا الغزو فقد كفيت الفرقة الرومية أمرها، ولايزال الرهبان يفعلون ذلك، وليس هذا ببعيد عما ذكرته في أول الكلام من توصيات المستشرقين وتقاريرهم ونصائحهم لمؤسسات التبشير والاستعمار بزلزلة علوم المسلمين التي هي أصول حضارتهم، وأن زلزلة هذه العلوم هو الطريق إلى زلزلة عقيدتهم، والمستشرقون رهبان أو أشباه رهبان، وهم جادّون ومجتهدون نحو غاية واحدة، هي بث الثقافة الأوروبية المسيحية في ديار الإسلام، وتخليص العلوم العربية والإسلامية إن لم يكن إزالتها عن صفائها ونقائها بغرس عناصر من الفكر الأوروبي المسيحي في جسم هذه العلوم، حتى تتغيّر وتتحوّل.

والقاضي الأكرم قدّم كتابًا أكثره في اليونانيات بمقدمة يتقرّب فيها إلى الله ويرجو رحمته ومغفرته ومثوبته له ولقارئ كتابه، ويقول في هذه المقدمة: «وقد عزمت بتأييد الله على ذكر من اشتهر ذكره من الحكماء في كل قبيل وأمة قديمها

وحديثها إلى زماني، وما حفظ عنه من قول تفرّد به، أو كتاب صنفه، أو حكمة عليّة ابتدعها، أو نسبت إليه، فإني رأيت ذلك من الأمور التي جهلت والتواريخ التي هجرت، وفي مطالعة هذا اعتبارٌ بمن مضى، وذكرٌ لمن سلف، وهو اعتبار أرجو منه الثواب لي ولقارئه إن شاء الله تعالى». (المقدمة، ص١).

ولم يكن القفطي غافلًا عن مقالة الراهب، التي كتبها القفطي بيده، وهي صريحة في خطر الغزو الفكري، ويعتقد القفطي أنه في تقديمه لهذه الشريحة النابهة من الفكر الإنساني يعمل عملًا جليلًا.

والأمر محتاج إلى توضيح لبيان كيف يتفق القول بخطر الغزو الفكري مع كل ما قدمناه من أن علماءنا كانوا ينفضون تراث الأمم نفضًا، حتى إنهم كانوا يستصفون صفوه، كما فعل الزمخشري في «ربيع الأبرار»، وأنهم كانوا في هذا يتبعون منهجًا أرسى أسسه رسول ﷺ في قوله: «الحكمة ضالّة المؤمن».

وجواب هذا أن الغزو الفكري الذي احتشد له أعداؤنا منذ راهب الفرقة الرومية في عهد المأمون، ومرورًا برهبان الحروب الصليبية، إلى هؤلاء الرهبان الصغار الذين يخرجون علينا من أروقة الكنائس، يتكلمون في صُحُفِنا عن الثقافة والتّنوير، وزحف الظلام من ثقافات العصور الوسطى إلى آخره، هو الذي يستهدف ضرب علومنا وزَحزَحتَها عن مواقعها في تثبيت دعائم حضارة الإسلام، والذي تراه دالًّا على نفسه دلالة ظاهرة في عدائه الشديد للتراث الإسلامي، وإصراره على القضاء عليه، إما اجتثاثًا وإما اصطلامًا، كما كان

يطالب أفراد الحرس الشيوعي القديم وضُلّال نصارى العرب، الذين يقولون: كفانا حديثا عن خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب والجاحظ والمتنبي، ولنتكلم الآن عن الوضعية المنطقية لأوجست كونت، والمادية الجدلية لماركس إلى آخر ما قدمنا. وإما ببث الفكر المسيحي الأوروبي داخل شرايين العلوم العربية والإسلامية، حتى يُقضى عليها ببُطء، ومن غير أن تَسْتَنْفِرَ ضد ثقافتنا جموع المسلمين، كما توصي بذلك تقارير الرهبان الجدد، الذين حملوا الأمانة منذ راهب الفرقة الرومية حملًا لا تفريط فيه.

وهذا هو الغزو الذي لاشك في خطورته، والذي يقوم عليه الآن رجال منّا، يقومون ويقعدون بالهجوم على علومنا وتراثنا، وهذا عملهم في كتاباتهم ومحاضراتهم ومؤتمراتهم وأنديتهم، وكأن الكون لم يكن فيه قضية تشغلهم إلا هذه القضية، ولا الغزو الصهيوني الذي يدخل بلادنا الآن في «زفة سلام»، كل هذا لا يشغل بالهم، وليس في دخول الصهيونية ديارنا من الخطر ما يساوي الحديث عن تراث المسلمين وعلم المسلمين وعلماء المسلمين، وفي النهاية زحف الظلام ليس في موكب صهيون، وإنما في موكب التيار الإسلامي.

أقول: هذا هو الغزو الفكري الخطر، وليس له صلة بالعلم، وإنما هو عمل آخر وتدبير آخر، وأهداف أخرى، ورجاله لا يجوز أن يحسبوا من العلماء، ولا من المشتغلين بالعلم، وإنما يحسبون على تصنيفات أخرى وهيئات أخرى. وهذا شيء، ووضع تراث الإنسانية تحت بصر المسلمين وبصيرتهم ليقرؤوا فيه، وبه

تجارب الآخرين وكيف يفكرون، وماذا يقولون، وتزداد بذلك عقول المسلمين وعيًا وإيقاظا؛ شيء آخر، وليس لهذا الفكر رسالة في أمة الإسلام أكثر من هذا وهي رسالة جليلة، ثم إنه لا يتعدى الخط الممنوع فيداخل علوم المسلمين ويلابس معارفهم، وإنما تظل علومهم وثقافتهم ومعارفهم خالصة صريحة لا يداخلها شوب من غيرها، كما قدمنا عن الزمخشري والخوارزمي، وأبي علي الفارسي، وأبي الفتح الرومي، والقفطي التيمي الشيباني.

ولما اختلطت عندنا الأوراق، وراح كل من اقتبس معرفة من علوم الآخرين يدخلها في علومنا،رأينا صورة غريبة لثقافتنا ومعارفنا، لأن منا من قبس من علوم الفرنسيين، وأدخل ما قبسه في علومنا، ومنا من قبس من علوم الإنجليز، وأدخل ما قبسه في علومنا، ومنا من أخذ من علوم الألمان، وأدخل ما قبسه في علومنا، فصارت لدينا معارف غريبة، تضخمت وتَوَرَّمَت وابتلعت في بطنها عناصر مختلفةً وأخلاطًا غير منسجمة، لأنها التقت لقاء عشوائيًا وكيفما اتفق؛ ففقدت الثقافة العربية الإسلامية هويتها، وقد وصف مالك بن نبي رحمه الله هذه الحالة وصفًا حسنًا في سلسلة كتبه الجيدة «مشكلات الحضارة».

والأصل أن يكون كل هذا بعيدًا عن العلوم، وأن يظل تحت بصر الأمة وبصيرتها، ثم ينصرف الكل نحو علومها، كل ينفحها نفحًا بعد نفح، ويجاهد بصبر في قراءتها وتحليل عناصرها، كما يفعل كل البشر.

ولو راجعنا ما عليه الأمم لوجدنا موقف علمائنا الذي وصفنا بعضه هو

الموقف الذي سلكوه.

ومن المعلوم أن تراثنا قد نقل إلى أوروبا، وأن مخطوطاتنا لايزال منها عندهم أكثر من الذي منها عندنا، وليست هذه المخطوطات عندهم تحفًا وأنتيكات ينظرون إليها من خارجها، وإنما هي عندهم كتبٌ يعرفونها، وقد رأيناهم في بلادنا يدفعون أثمانًا باهظة في مخطوطات غير نادرة يبيعها لهم جهالنا، وقد ترجموا كثيرًا من كتبنا إلى لغتهم، ولايزالون يقدمون نصوصًا مترجمة من علومنا لطلاب العلم، ويُنْشَر هذا في مجلات تصدرها الجامعات الأمريكية في بلادنا.

وكنا ولازلنا نراهم في قاعات المطالعة الخاصة بالمخطوطات، يصبرون على قراءتها ساعات طوال لا يَملُّون، وأحيانًا يعكفون على قراءة الأفلام المصورة بأجهزة القراءة المعدة لذلك، ومع صعوبة هذا اللون من القراءة كانوا يعكفون بالساعات لا يَملُّون، ولم نقرأ في كتاباتهم أو في علومهم وأدبهم ونقدهم ورجالهم ومعارفهم إشارة إلى شيء من هذا، بل إن الألمان يدرسون آداب الأمم في أقسام اللغات الأخرى باللغة الألمانية، يعني يدرسون الأدب الإنجليزي في قسم الأدب الإنجليزي باللغة الألمانية، وهكذا كل الآداب بما في ذلك الأدب العربي، وقد سألناهم: لماذا لم تكتبوا بحوثكم في لغتنا بلغتنا؟ فقالوا: إن القانون الألماني يحرِّم دراسة أي فرع من فروع المعرفة على أرض الألمان بغير لغة الألمان، وذلك لأننا نكتب للشعب الألماني، لا لأصحاب هذه

الآداب، والهدف أن نضع تحت بصر وبصيرة الشعب الألماني عقول البشر قاطبة إن استطعنا ذلك، وهم بالطبع لا يضعون في علومهم علوم البشر قاطبة، وإنما هناك خط أحمر ممنوع الاقتراب منه عند كل الأمم، وهو علوم حضارتها وثقافتها وعقائدها وتراثها الممثلة لهويتها وذاتها، لا يجوز لمعارف البشر أن تتخطى هذا الخط الأحمر الممنوع، وإلا كانت العلوم خليطًا من الفوضى.

وهنا مسألة قد تَرِدُ معترضةً على كل ما قلناه؛ وهي أن منطق أرسطو قد دخل العلوم العربية في كتب المتأخرين، وخاصة الشُرَّاح وأصحاب الحواشي، وقد أكدنا أن علماءنا حفظوا لعلومنا صفاءها ونقاءها، وأنهم وضعوا تراث الأمم بين أيديهم، لا ليدخلوه في علومهم، وإنما ليتعرفوا على ما عند غيرهم، ويكون في هذا التعرف من الفائدة ما يكون بتنوُّع الاطلاع وكثرة القراءة، وكل هذا يثقِّف النفس ويهيِّئُها لعمل جيِّد، وبمقدار كثرة القراءة وتنوُّع الاطلاع تكون القدرة على الفهم والمناقشة، وقد قالوا: إن الذي لا يقرأ إلا كتب البلاغة لا يفهم البلاغة، والذي لا يقرأ إلا النحو لا يفهم النحو، وإنما لابد من تنوُّع عناصر المعرفة، والعقل كالجسم لا يكفيه غذاء واحد.. قلنا ذلك وأكدناه.

ودخول منطق أرسطو في بعض كتب المتأخرين، وفي بعض مسائل منها لم يكن تهجينًا للثقافة والعلوم العربية، لأن منطق أرسطو تقنين لما في فطرة العقول، وليس مادة علمية تدخل في العلوم، ولذلك بقيت المادة العلمية في مواطن وجوده في الكتب كما كانت قبل دخوله، ولهذا اختلف الموقف اختلافًا

كبيرًا بين ما نحن فيه وهذه المسألة، نحن نتكلم عن وضع فكر بديل لفكر، أو غرس فكر دخيل في صلب الفكر الأصيل، وهذا هو الخطر الذي لا يهادنه إلا مَدْخُولٌ في رأيه، أو مَدخُولٌ في دينه، أو مَدْخُولٌ في وطنيته وانتمائه.

وأضربُ مثالًا لتوضيح علاقة منطق أرسطو بعلوم العربية التي دخل فيها، نحن نقول في لغتنا المألوفة: فلان مسلم لأنه يمني، اعتمادًا منّا على أن كل اليمنيين مسلمون، فإذا أدرجت هذه المعلومة على مدرجة أرسطو قلت: فلان يمني وكل يمني مسلم، إذن فلان مسلم، وصرت إلى شكل من أشكال المنطق، والمسألة هي هي، ومثاله في البلاغة أن العلماء قالوا وهم يعالجون قول الشاعر:

قَدْ أَصْبَحَتْ أَمُّ الخِيَارِ تَدَّعِي

عَليَّ ذَنْبًا كُلُّهُ لمْ أَصْنَعِ

فالشاعر في حالة مشاكسة مع زوجته، لا شأن له بأشكال أرسطو، قالوا: إنه رفع «كل» والأكثر أن ينصبَ لأنه أراد نفي كل ما ادعته عليه، ولو نصب «كل» لكان نفيًا لبعض ما ادعته، وليس هذا بمراد، وذكروا في هذا أن ألفاظ العموم إذا سبقها النفي، وقلنا: لم أفعل كل ذلك، أفاد أنك فعلت بعضه، لأن النفي مسلطٌ على العموم، والعموم بمثابة القيد، وإذا دخل النفي على كلام مقيد أفاد نفي القيد، فإذا قلت: ما جاء زيد راكبًا، لم تكن نافيًا مجيء زيد، وإنما نفيت ركوبه، وإذا سبقت هي النفي دخل النفي في حيزها كما تقول: كل ذلك لم يكن منه شيء، كما قال الشاعر.

هذه المسألة لمّا تناولها المتأخرون تسَلَّل إليها منطق أرسطو، وبدلًا من أن يقولوا: دخل العموم في حيِّز الخبر، أو دخل النفي في حيّز العموم، ذكروا عموم السلب وسلب العموم، والمادة العلمية باقية كما هي، والنتائج المستخلصة من التركيب ودلالته كما هي، ولكن المادة دخلها نظام جديد ومصطلح جديد، وهذا ظاهر.

وقد شاع خطأ يقول: إن منطق أرسطو جدّد البلاغة والنحو، وأنا من الذين يكرهون دخول منطق أرسطو في أي علم كان، وكنت أتمنى لو ابتعد علماؤنا عن هذا، وبالطبع لست مدافعًا عنه، وإنما الواجب أن نتابع ونحلِّلَ بدقَّةٍ وأمانةٍ، وقد قلت ذلك لأنني هنا أصادم كلامًا كَثُرَ رواجُه، وأقول: إن منطق أرسطو لا صلة له بتجميد العلوم، لأنه دخل في مسائل محددة تعد على أصابع اليد الواحدة لا غير، وعند شُرَّاح محددين، غلب على عقولهم في المسائل التي أدخلوه فيها، هذه واحدة.

الأمر الثاني: أن منطق أرسطو لا شأن له بالمادة العلمية كما قلت من جهة تطورها ونموها، لأنه لا يتعامل إلا مع مادة علمية جاهزة، فلم يكن حائلًا بين العلماء وصنع مادة علمية جديدة أو بعث فكرة جديدة، أو إثارة فكرة من قضية، أو استخراج مسألة كانت خفية، إلى آخر ما به تتحرك المعرفة، ليس لمنطق أرسطو شأن بهذا، وإنما يرجع توقف العطاء إلى أطوار التاريخ، بكل ما يداخلها من أوضاع اجتماعية وفكرية واقتصادية وسياسية إلى آخره.

وأزيد كلامي تحديدًا فأقول: إنني أتكلم عن منطق أرسطو في علوم العربية، أما دخوله في علم العقائد فذلك شأن آخر ودرس آخر.

ومن الخطأ الشائع أيضًا أننا نعلِّلُ صعوبةَ المادة العلمية أحيانًا بأن المنطق أفسدها، وصعوبةُ المادة ترجع إلى عواملَ كثيرة، منها دقة مسائلها، ومنها الطبيعة العقلية للمؤلِّف وصوره التي يعرض فيها المادة العلمية، ولا شأن للمنطق بهذا، خذ الرافعي مثلًا، أو العقاد، تجد صوره الذهنية بعيدة، وخواطره شاردة لا تتمكن منها إلا بيقظة شديدة، وتجد مثل هذا في شعر أبي تمام وشعر المتنبي، نعم، إن منطق أرسطو أغمض المسائل التي دخلها، وأجراها على مدارجه، ولكنها كما قلتُ مَحْدُودَةٌ جدًا.

وبعد:

فقد لحظ أحد علمائنا الأطباء المشتغلين بعلوم الأدب أن اللغة العربية وشعرها وأدبها صارت غارقة في بحر من الأعجميات، فالنقد أعجمي، والألسنيات أعجمية، وطرائق العرب في تذوق اللغة قد باتت مكفوفة، وطرائق العلماء في تمحيص الأساليب وتصويبها قد غابت وتكاثرت فيها العجمة، والعجمة عنيدةٌ شرسةٌ لا تقبلُ وجود فكر عربي، وأوشكت أن تحيطَ باللغةِ وتفسدَ فصاحتها ونصاعتها.

واتَّفَقَ أنْ طَالَبَ أحد كتابنا بتعريب علوم الطب، فرد عليه هذا الطبيب الأديب في جملة واحدة قال: نعم، نُعرِّب علوم الطب، ولكن بعد تعريب علوم

العربية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

محمد محمد أبوموسى

مقالات مختارة للمؤلف

أ.د. محمد محمد أبو موسى

نشرت في مجلة الوعي الإسلامي

مهلًا أيّها الكبار

العدد (٢٢٤) ص(١٠٠)

لاشك أنه من المضار التي تثقل حياتنا فقدان الطريقة المثمرة حين نغضب أو نختلف. مع أن اختلاف أهل العلم يكون دائمًا أخصب وأثرى، لأنه موقف تستثار فيه الطاقات، ويسطع وَهَجُ الفكر، فيستخرج من الحقائق خوافيها، ويجلي خوافيها، وليس أمتع من أن ترى العقول الفذة تتحاور حوارًا ممتعًا سديدًا.

ونحن الآن إذا اختلفنا تخاصمنا وتنابذنا، وطلب كل منا الظفر على من يخالفه، ولا يهم أن يطأ بقدمه وهو غاضبٌ ثائر حقيقة؛ مادام يصل إلى ما يوهم الآخرين أنه الغالب.

ومن بيننا رجال حملوا أقلامهم، لتبرئة الأمة من الأدواء التي منها هذا، وشخَّصوا آثاره الوبيلة، ودعوا قومهم – مخلصين – إلى ضرورة التفكير الهادئ، مهما كانت المشاعر المحيطة بالموقف، لأن التفكير الهادئ هو وحده الذي تستطيع به أن تضع الشيء في نصابه، ثم لمّا شاء القدر أن يختصموا صاروا في حاجة إلى من يذكِّرهم بمقالتهم.

وليس هناك ما يدعونا إلى أن نشير إلى مكانة رجال يختصمون الآن على الساحة وهم: الشيخ الشعراوي، والدكتور زكي نجيب محمود، والدكتور

يوسف إدريس، والأستاذ توفيق الحكيم، وإن كان الأستاذ الحكيم نفض يده ورجع في صمت. وكنا ننتظر صورة زاكية للخلاف في الرأي، نرى فيها المختلفين متعاونين في الكشف عن الحقيقة التي هي أجلّ من الكل، وأخلد من الكل، ولكننا وجدنا تراميًا كالترامي الذي ألفناه في ساحات أخرى، ولم تبرأ ساحة الفكر والأدب، حتى عند الكبار من هذا الوبال، وكان أول ما يجب في هذا الموضوع أن يضع فضيلة الشيخ الشعراوي يد القارئ أو السامع على الحقائق التي لا تحتمل إلا وجهًا واحدًا، والتي بنى عليها القول الذي قاله في هؤلاء الرجال، والشيخ الشعراوي يعلم أن الرمي بهذه الكبيرة – إذا لم يكن مؤسسًا على حقيقة لا يتطرق إليها الاحتمال – كان ذلك عند الله حوبًا كبيرًا، وقد غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الغضب لما نالت سيوف المسلمين دم رجل قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وظن من رماه أنه يقولها تُقْيَةً.

ثم إن الدكتور زكي نجيب وهو الذي كابد ويكابد نحو غاية سامية نبيلة وهي تحريك العقل العربي، حتى ينطلق من القمقم الذي حبس فيه وطال حبسه حتى ألف الضباب، يقع هو فيما كان يجب أن يتحاماه، رغم تماسكه ولواذه بالحكمة، وذلك في النقاط الآتية:

١- كان موقف الدكتور زكي نجيب من حديث الذبابة موقفًا غير سديد وذلك لأنه سخر منه، والحديث مروي في البخاري، ومادام كذلك فلابد من

التوقف ودراسة الحديث بالوسائل التي أسسها العلماء في هذا الباب، فإذا قوي الحديث، وعَلَت درجة صحته؛ كان مُلزمًا لكل مسلم، أدركنا حكمته أو لم ندرك، لأننا نأخذ ديننا عن هذا النبي ﷺ الذي قال هذا الحديث. يستوي في ذلك الحكم المعلّل، والحكم غير المعلّل، ومن غير شك أننا لا نعرف الحكمة في كون الصبح ركعتين، والظهر أربعًا، والمغرب ثلاثًا، كما لا نعرف الحكمة في كون الطواف سبعًا، ولا في تقبيل الحجر الأسود، ومقالة عمر بن الخطاب وهو يقبِّل الحجر مقالة مشهورة ومهمَّة، قال: "والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبِّلك ما قبَّلتك". فالأمر أمر إذعان، مادام قد ثبت عن رسول الله ﷺ، هذا ولم نناقش هنا مضمون حديث الذبابة، مع أن فيه كلامًا، وأَخْصَرُه أن رسول الله ﷺ إنما أرشد إلى طريقة التوقي، ولم يأمر بشربه، وإنما ترك ذلك ليتصرف كُلٌّ طبقًا لظروفه، وفي الأحوال أحوال لا يجد المرء فيها مناصًا من شربه.

٢- وصف الدكتور زكي الشيخ الشعراوي بوصفين ينقض أحدهما الآخر، فقد ذكر أنه يحسن فهم القرآن، ثم ذكر أنه يعادي العلم، وهذان لا يلتقيان، لأن من أهم مقاصد القرآن هو تحريك العقل الإنساني، وتوجيهه إلى النظر في هذا الكون، وفي سنن الله فيه، ودراستها وتحليلها، وتسخيرها، واستمداد القوة من ذلك حتى تكون للمسلمين الغلبة والشوكة، والقرآن الكريم يأمر المسلمين أن يمشوا في مناكب الأرض، وهذا معناه الأمر بأن

يكونـوا مقتـدرين، يسـتطيعون إخضـاع هـذه الأرض وتـذليلها، ولـن تكـون الأرض ذلولًا لقوم جاهلين يعادون العلم، والقرآن الكريم مليء بذلك، والآيـة الكريمة التي تنفـي المسـاواة بـين الـذين يعلمـون والـذين لا يعلمـون : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، (الزمر:٩) لم تذكر ضربًا مـن ضروب العلـم دون ضرب. وإنما جاء لفـظ يعلمـون هكـذا مطلقًـا، أعنـي لم يـذكر لـه مفعـول، لحكمة عالية هي أن المهم أن يعلم الإنسان فحسب، سواء كان هـذا العلـم علـمًا نظريًا أم كان عمليًا، والآية الكريمـة التـي في سـورة فـاطر والتـي تقـول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر:٢٨)، جاءت في سياق علم النبات، وعلـم طبقـات الأرض والجبـال الجـدد البـيض والغرابيـب السـود، وعلـم الأجنـاس البشرية واختلاف الألسنة والألوان، وعلم البيطـرة، وراجـع الآيـة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (فـاطر:٢٧-٢٨)، إلى آخـر مـا لا سـبيل إلى استقصـائه، وهـذه حقائق شائعة في القرآن يدركها مـن قـرأه، وتـدبَّره، فكيـف يوصـف الشـعراوي بأنه يجهلها؟ وأنه يعادي العلم؟ وكيف يكون الوصف من الدكتور زكي نجيب محمود وهو واحد من وجوهنا التي ينظر إليها الكثير.

٣- الأمر الثالث: أن الدكتور زكي نجيب أنكر على الشيخ الشعراوي أن يقول: "يريد أو يريدون"، وحجته في ذلك أن تحديد إرادة الناس يعني مقاصدهم المطوية وراء أعمالهم إنما هو من علم الله، وهذا حق، ولكن من الحق أيضًا أن تحدد مرادي من كلامي هذا الذي تقرؤه، مادمت أفرغت إرادتي في كلامي، وهذا هو القدر الذي عليه المؤاخذة بين الناس، وهو الذي كان يعتمده رسول الله ﷺ، فإذا أنكر كاتب حكمًا من أحكام الله، أو سخر منه، يكون من واجب من يعلم أن هذا الحكم من شرع الله أن يقول ما يجب أن يقال في هذا الشأن. هذا ما رأيت أن أشير إليه في كلام الدكتور زكي نجيب محمود.

أما الدكتور يوسف إدريس، فقد كان يبدو منفعلًا، وخاصة في لقائه مع الأستاذ عاطف حسين الذي نشر في جريدة الشعب، والمنشور في هذا اللقاء، والمنشور في الأهرام بعنوان "عفوًا يا مولانا " شيء واحد، ويكاد يكون مكررًا. وقد بدأ الدكتور يوسف بذكر "الثور البقرة غير الحلوب"، وهذه تشكيلة عجيبة دالة على مزيد من السخط والانفعال، وأن هناك ما أثار حفيظة الأستاذ، وهو يقصد الذين يتهمون بعض الكتّاب بالشيوعية والإلحاد، وبالأخص هذا الثور "الأبيض الهائج في الأهرام، والذي يتهم الشيوعيين بالإلحاد!" وهذا أيضًا غريب، لأن من يصف الشيوعيين بالإلحاد لا يتهمهم، وإنما يخبر عن حقيقتهم المعلنة، والمهم أن غضب الدكتور إدريس جعل رمزه مكشوفًا، لأن لفظ "ثور" لو تعاملنا معه على طريقة أبي الفتح بن جني في تقليب حروف

الكلمة لأخرج اسم كاتب من كتّاب الأهرام هو أعذبهم مقالة وأشرقهم ديباجة، وأقومهم طريقًا وأهداهم سمتًا، وأرجو ألا يكون قد قصد إليه، لأنه من أرومة عزيزة على الفكر والأدب، نعم هو لا يني في مطاردة الملحدين.

ثم ذكر الدكتور يوسف أنه هو وصاحبيه رؤوس كبيرة جدًا في هذا البلد، وتتلمذ على أيديهم أجيال وأجيال، وأنهم أصبحوا من عمد الوجود المصري – وهذا بالطبع لا يقدم ولا يؤخّر في مناقشة المسألة – ثم ذكر أن الشيخ الشعراوي يكفِّر من يفكِّر، وأنه يعتبر المفكرين منافسين له، وهذا ليس داخلًا في القضية، ولا ينسب إلى الشعراوي، وليس في كلام الشعراوي ما يدل عليه، ولا يجوز للدكتور يوسف أن يحكم على مطوي نفس الرجل، وقد رفض هو أن يحكم الشعراوي على إرادة الناس.

ثم أخذ على الشيخ الشعراوي أنه شُغِل وشَغَل الناس بتفسير سورة البقرة في الوقت الذي كانت فيه الأمة محتاجة إلى مواجهة مخططات الصهيونية، ونسي الدكتور يوسف أن ما كشفه القرآن من طبيعة الشخصية الإسرائيلية لا يستطيعه كاتب مهما بلغ من الفهم والاستيعاب، وسورة البقرة حافلة بهذا اللون الذي وصف طبيعة قلب اليهود، وأنه لن يكون مصدرًا لخيرٍ، كما وصفت غدر اليهود، وأنهم لا يذعنون لحجة، ولا يستمرون على عهد، وكان الشيخ الشعراوي موفَّقًا جدًا حين قرأ على الأمة هذه الصفحات من المصحف في الوقت الذي كثر فيه الكلام عن ضرورة تذويب جدار الحقد، وفقدان الثقة

بين الطرفين، واليهود أنفسهم يعلمون أنه مادام القرآن مَتلُوًّا في هذه الأمة فسوف تظل العقيدة قائمة على أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا. ويلاحظ أن بعض أعيان الأهرام في ذلك الوقت طلبوا ود يهود علنًا، وأداروا ظهرهم للعرب علنًا، وهاج لذلك من هاج.

وكتب الدكتور زكي نجيب محمود مقالًا بعنوان "قلم يتوب"، فكيف يتهم الشعراوي في أمر قد أحسن فيه حين أساء الناس؟! ثم أنكر الدكتور يوسف إدريس قول الشعراوي: إن مناقشة المسائل الإسلامية يجب أن تكون خاصة بعلماء الإسلام.

والذي قاله الشيخ الشعراوي حق، لأن مسائل الدين مرتبطة بمعارف ودراسات دقيقة ومتشابكة، لم تتح للكاتب غير المتخصص، والشيخ الشعراوي يدفع بذلك خطرًا لابد أن يدفع، لأن صلة كتّابنا بالتراث الإسلامي لا تهيئهم للاستنباط منه، واقرأ ما كتبه الدكتور زكي نجيب محمود نفسه في مقدمة كتابه "تجديد الفكر العربي"، ليحدثك الرجل بأمانة عن فقدان صلته بتراث أمته فقدانًا تامًا، وأنه بقي هو وكثيرٌ من جيله لا يعرفون إلا الفكر الغربي قديمه وحديثه، وأنهم صاروا أساتذة يحاضرون الآلاف المؤلفة من أبناء الأمة في غيبة تامّة للفكر العربي الإسلامي، وأن الدكتور زكي بأخرة، وقع على هذا الفكر فرأى أنه قد فاته خير كثير، ودع هذا، واقرأ مقالًا نشرته مجلة الدوحة لكاتب مسلم، يخوض بقلمه في مسائل الحلال والحرام، ويرى أن أفكار البدعة

فكر جاهلي، وجعل عنوان المقال: "استنكار البدعة وكراهة الجديد موقف إسلامي أم جاهلي؟" وبيّن أن من يقول "كل بدعة ضلالة" يسد في وجه الأمة مسالك التقدم، وقد أفزع هذا الكلام المفزع كاتبًا مستقيم الفهم، هو الدكتور كامل زعموت؛ فرد هذه الضلالات ردًا صريحًا، واستهول ما جاء به صاحب المقال، فهل يكون الشعراوي مخطئًا إذا قال لمثل هذا الكاتب: دع هذا لمن يفقهه؟ نعم من حق كل مسلم أن يدرس الحلال والحرام، وأن يكون من العلماء في هذا الشأن، ولكن من الحق الذي لاريب فيه، أن الذي يكتب في الإسلام من غير مراجعة مصادره لا ينتج إلا مخرقة كمخرقة هذا الكاتب الذي ينكر إنكار البدعة.

أما ما قاله الشيخ الشعراوي في مجلس الشعب، وموقفه من كامب ديفيد، وكونه ليس له برنامج في إصلاح أزمة المواصلات أو السكن، فهذا كله خارج عن القضية التي كنّا نودُّ للكبار جدًا والذين هم عمد الوجود المصري أن يستهدفوا بخلافهم بيان حقائق حول المسائل التي اختلفوا فيها، بالروح العلمية المترقبة من ثقافاتهم الواسعة، والمتنوعة، ولكن ليست هذه أول مرة يخيب ظن الناس في الكبار جدًا.

والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

قراءة في مقدمات كتُب القدماء

العدد (٢٣٠) ص (٥٨)

تثير مقدمات كتاب أهل العلم في نفس قارئها أشياء، أردت أن أشير إلى شيء منها.

وليس النظر في مقدمات الكتب واستخراج ما فيها شيئا جديدًا، وإنما هو لون من ألوان النظر قديم، أكثر منه علماؤنا، وأفردوا له كتبًا ورسائلَ، وقد كتبت كتب متعددة حول مقدمة واحدة، كمقدمة القاموس التي أثار فيها الفيروزآبادي مسائل حول نشأة اللغة، وتاريخ العربية، وإيغالها في القدم، واستبحار مفرداتها وتراكيبها، وعلومها، وأنها لا يحيط بها إلا نبي، إلى آخر ما قال، وروى من كلام الكَمَلَة رضوان الله عليهم.

وإنما أردت أن أستخلص من بعض المقدمات بعض الحقائق المهمة، والمتصلة بما يثقل حياتنا الفكرية من خلافات حول التعرف على الصراط المستقيم الواصل بها إلى ما ينشده كل ذي عقل وقلب من أبناء هذه الأمة، الذي يجدون أوجاعها وآلامها وخزًا في قلوبهم. وأهم هذه الحقائق أن هذه المقدمات كثيرًا ما تجدها دعوة جهيرة إلى الاجتهاد في الباب الذي كتبت فيه، وأن مجال القول فيه متسع جدًا، وإمكان الإبداع، والإضافة، والتنوع، فسيح فسيح.

وهذه حقيقة مهمة، وقيمة رفيعة من قيم هذا التراث. أما موطن الدعوة إلى الاجتهاد في هذه المقدمات فنص في هذه الفجوة الواضحة بين ما طمحت

إليه هممهم، ونصبوه في هذه المقدمات هدفًا وغاية، وبين ما حققوه في بطون الكتب من دراسة وتحليل.

فالغاية غالبًا ما تكون هدفًا كبيرًا يشبه الأمل والرغبة التي عظمت في تلك النفوس، ثم يأتي العمل والممارسة في داخل الكتاب، ويرى قاصرًا عن هذه الغاية قصورًا لا يخفى.

وهذه الفجوة هي الصوت الجهير الذي يدعو الخَلَف إلى إتمام رسالة السَّلَف.

والغايات التي يستشرفها العلماء ليست انطلاقات من فراغ، وإنما هي إحساسٌ غامضٌ بضروب من الميادين العامرة بحقائق المعرفة، والتي لما تزل وراء الحجب، وكلما طالت الممارسة لحقائق العلم، وطال الإلف وطالت الملازمة كان ذلك أحرى بإيجاد هذا الإحساس الغامض بهذه الحقائق الغامضة، والذي قد يعظم حتى يكون تطلعًا وتلهفًا وتحرقًا نحوها، حتى ليوشك الباحث في هذا اللون أن يلمح هوادي الحقائق وهي تومض من هذا الغيب، وتوشك كلمات أهل هذه الطبقة أن تومئ إلى هذا البعض المجهول، ولكنها إيماءة، "كالإشارة إلى مكان الخبيء ليعرف" على حد عبارة عبدالقاهر، فعباراتهم لم تدل على هذه الحقائق دلالة قريبة ولا بعيدة، وإنما أشارت إلى مكانها المخبوءة هي فيه، ليبحث عنها هناك وتستخرج، وهذا هو وجه طموح المقدمات، وهذا هو الذي يجب أن يكون بين أعيننا، ونحن نقرأ تراث أهل

العلم، كما كان بين أعين سلفنا، وهم يقرؤون تراث سَلَفِهِم.

وليس بين أيدينا كتابٌ واحدٌ من كتب البلاغة والإعجاز أصاب الهدف الذي رمى إليه صاحبه، وقدم فيه ما يقنع ويقطع بتحقيق الغاية التي توخاها، ولهذا تواترت الكتب والجهود من هذين العلمين الشريفين، وترك كل كتاب من ورائه الباب مفتوحًا يدعو غيره. وإليك برهان هذه الدعوة:

أما كتب البلاغة، فسوف يكون شاهدها أجلّ كتابين كُتِبا فيها، وهما: "أسرار البلاغة"، و"دلائل الإعجاز".

ذكر عبدالقاهر في مقدمة أسرار البلاغة أنه يتوخى تحديد الأصول التي يؤسس عليها الحكم في بيان منازل الأدب والشعر، حتى يتبيّن لدارسه "كيف ينبغي أن يحكم في تفاضل الأقوال، إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان، ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان؟" (أسرار البلاغة).

وهذه غاية ليس بعدها غاية من هذا الباب، فأي شيء نستشرف إليه بعد العلم بكيفية الحكم في تفاضل الأقوال؟ (أسرار البلاغة، ص٢).

والسؤال هو: هل حقق كتاب أسرار البلاغة هذه الغاية؟ مع أنه من أدقِّ وأحكم ما بين أيدينا من كتب، بل هل حقق التراث البلاغي والنقدي كله هذه الغاية؟ ووضع بين أيدينا الحقائق المستوعبة، والتي يؤسس عليها فهم أسرار بلاغة الكلام وقياس منازله؟ أم أن أهل العلم لايزالون في كبد من هذا الشأن؟

والأمر كذلك عند غيرنا، وقد وصف "رتشاردز" كفاح عقل أمته في هذا

الباب ابتداءً من كهوفهم القديمة من أمثال أفلاطون وأرسطو، وانتهاءً بالأفذاذ من بني جلدته من أمثال كارليل، وآرنولد، وذكر أن حصيلة هذا الكفاح "حقيبة تكاد تكون فارغة". مقدمة مبادئ النقد الأدبي، ترجمة د. مصطفى بدوي.

ولايزال ميدان البلاغة والنقد يزخر بالآراء والمذاهب التي تتهالك ويبتلع بعضها بعضها، ولايزال العلم بكيفية الحكم في تفاضل الأقوال وتقسيم حظوظها بينها من الاستحسان غاية غائمة، نستشرف إليها كما استشرف عبدالقاهر إليها، وإن كان هو كدَّ وثابر وأَثْرى.

أما ما قاله في مقدمة دلائل الإعجاز، فالأمر فيه لا يختلف عما قاله في الأسرار، وإن كان في الدلائل يوشك أن يخلص كلامه لبيان وجه الإعجاز، الذي لا يكون إلا بمعرفة طبقات الكلام، والأسس التي يقوم عليها الحكم في تفاضل الأقوال، إلا أنه هنا يتابع كيف يعلو بعض الكلام بعضًا وتتوافر فيه العناصر التي بها يرقى في سلم الفضيلة درجًا بعد درج، حتى يتجاوز الحدود التي تطيقها طاقات البشر، وتنقطع دونها أطماعهم، وتستوي الأقدام في العجز.

ويذكر عبدالقاهر أنه لا يكفي في هذا أن تنصب له قياسًا، وأن تصفه وصفا مجملًا، بل لابد من التفصيل. والمقصود في كتاب دلائل الإعجاز أن تعرف كيف تضع يدك على "الخصائص التي تعرض في نظر الكلام، وتعدها واحدة واحدة، وتسميها شيئًا شيئًا". (دلائل الإعجاز، ص٣١).

أرأيت الذي طمحت إليه همة الشيخ الجليل رحمه الله؟

والسؤال هل وضع اليد على أسرار نظم القرآن الذي به أعجز؟ وهل عدها واحدة واحدة؟.

لاريب في أن كتاب دلائل الإعجاز ليس له كتاب يزاحمه في تراث هذه الأمة، ولكن الغاية أكبر، ومهما جد عبدالقاهر، وأصاب في كشف أسرار الكلام وغوامضه. فالشيء الذي في سورة قل هو الله أحد .. وتبت يدا أبي لهب .. وإنا أعطيناك الكوثر .. كالشيء الذي في سريان النفس في النفس، واختلاف الليل والنهار، وتصريف الرياح والسحاب المسخر، لأن القرآن وهذه الأشياء من معدن واحد، وأين هذا مما قاله الشيخ الجليل؟

ولايزال القرآن منطويًا على أسرار إعجازه، التي هي آية الله فيه، كما لايزال هذا الكون من السموات والأرض وما بينهما منطويًا على آيات الله فيه.

والذي أدركناه من أسرار بلاغة القرآن، كالذي أدركناه من أسرار الكون والنفس، والسماء والأرض، وهو بالنسبة لما لم ندركه بعد كالسطور الأولى من فاتحة كتاب كبير. وكل خطوة نخطوها في هذا السبيل تنكشف من ورائها آماد وآماد، تجعل الإحساس بالعجز أقطع وأقهر.

وليس هذا خدشًا للصرح العظيم الذي بناه عبد القاهر، والذي فتح به آفاقًا سامية، ووضع به أُسُسًا دقيقة لفهم الكلام وتذوق أسراره، وغوامض بنائه، وإنما هو حقيقة أدركها من هم أعرف بتراث عبدالقاهر، وأنفذ في فهم

الباب كله.

فهذا أبويعقوب السكاكي الذي كان أكبر همّه أن يصبّ كل شيء في قاعدة، ويجمع كل ما انتشر في أصل، وكان له عقل مطيق لما يقصد إليه، وقد نفض تراث عبدالقاهر كلمة كلمة، ووعاه بعقلية يسطو ذكاؤها، ويسطع ضياؤها، يقول بعدما مخض تراث الرجل: "ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق"، وهذا ليس إذعانًا لقول عبدالقاهر، حتى تضع اليد على الخصائص وتعدها واحدة واحدة، وإنما هو شيء غيره، بل وإحالة إلى مبهم عانت منه قضية الإعجاز منذ الأجيال التي كان يخاطبها حمد بن إبراهيم الخطابي رحمه الله، وعانى منه الشعر والأدب، ولايزال يعاني، لأن الإحالة إلى النفس واعتماد الذوق وحده، هو في جوهره موقف حيرة، يلوذ به الناظر حين لا يكون قادرًا على أن يفصح عمّا يجد، وأن يبيّن عن علله، وبواعثه، أو حين يضيق به مجال الحُجّة، ويصعب عليه وصول البرهان، كما يقول القاضي أبو الحسن.

ثم إننا إذا عدنا إلى عبدالقاهر نفسه لنبيّن مدى المطابقة بين ما أودعه في كتابه، وما طمح إليه في مقدمته، وجدناه يدرك إدراكًا ظاهرًا قصور كثير من مباحثه عن الغايات التي يراها هو لهذه المباحث، وأنه كان كثيرًا ما يطوي صفحة قبل تمام بحثه، ويقول ذلك بلفظ مبين.

والأمر الغريب أنها لاتزال عند الحدود التي وقف بها عندها، ولم يفتح العلماء بعده ذلك الباب الذي رأى هو منه أبعادها الرحبة .

ثم إن هذه المباحث لاتزال بيننا كذلك على هذا الحد الذي تركه عبدالقاهر، لم نعمل عقولنا في إكمالها، هذا فضلًا عن تقصيرنا في فهم ما استخرجه هو، لأن دراستنا البلاغية والنقدية لم تمتد على ذات الطريق الذي سلكه الأئمة، وإنما تشَتَّتْ وتفرَّقت بها السبل.

وإليك بعض هذه المباحث:

قال بعد ما بسط صور الكناية، وأقسامها، وحلَّل شواهدها، وأشار إلى ما بينها من علائق، على الحد الذي ترى بعضه في كتب المتأخرين "وليس لشعب هذا الأصل وفروعه وأمثلته وصوره، وطرقه، ومسالكه، حد أو نهاية". (دلائل الإعجاز، ص٢٤١).

واضح أنه لا يقصد كثرة شواهد الكناية في الشعر والأدب، لأن توفر صورها ليس في حاجة إلى تنبيه، وإنما يقصد ضروبًا من الكناية هي بمثابة شُعَب وفروع، وطرق ومسالك غير هذه الضروب والطرق والمسالك التي ذكرها، وهذا قاطع.

والسؤال أين هي؟ ولماذا سكت عنها خلفه؟ كما سكتنا واكتفينا بترديد الصور التي ذكرت، ولم نجشم أنفسنا البحث عنها، كأنه يضع في أعناقنا مسؤولية استخراجها من الكلام، اقرأ عبارة عبدالقاهر مرة ثانية، تجد فيها أن الرجل رأى في هذا الباب آفاقًا ممتدة، التمعت بين عينيه واضحة خصبة، ولكنه اكتفى بما قال، وطوى صحفه.

ودع هذا، واسمعه يقول في أسرار حذف المفعول بعدما أبان عنه إبانة لا نعلم فيه شيئا أكثر مما قال: "وليس لنتائج هذا الحذف أعني: حذف المفعول نهاية، فإنه طريق إلى ضروب من الصنعة، وإلى لطائف لا تحصى". (دلائل الإعجاز، ص١٢٥).

تأمل قوله: "فإنه طريق إلى ضروب من الصنعة، وإلى لطائف لا تحصى". تجده ليس إشارة إلى كثرة شواهده في الشعر والكلام البليغ، وإنما هو تنوع في الطرق، والأساليب، فيه من اللطائف ما لا يحصى، يعني معرفة أخرى في أسرار هذا الضرب تضاف إلى ما بين أيدينا ... وأين هي؟

واسمعه يقول بعدما درس مواقع "إن" من الكلام دراسة هي أوسع مما جرى في كتب المتأخرين: "وليس الذي يعرض بسبب هذا الحرف من الدقائق والأمور الخفية، بالشيء يدرك بالهوينا، ونحن نقتصر الآن على ما ذكرنا". (دلائل الإعجاز، ص٢٥٢).

وهذا واضح من أن وراء الذي قاله في هذا الباب دقائق وأمورًا خفية، لا تدرك بالهوينا، وهذا كلام نفيس يدركه من عانى تحليل بناء الكلام وواجهته هذه الأداة، وأراد تخريجها على الوجوه المتعارفة فنبت، فضاق بها وسكت، وهو لا يحسب أن وراء ما عرفناه من معانيها وأحوالها، أشياء وأشياء .

ودع هذا وخذ قوله بعدما استخرج الذي استخرجه من كلمة "إنما" مما شاع بعده قال: "واعلم أنه ليس يكاد ينتهي ما يعرض بسبب هذا الحرف من

الدقائق". (دلائل الإعجاز، ص ٢٧١).

ولم يذكر أحد بعده واحدة من هذه الدقائق، التي قال فيها: إنها لا تنتهي ولا تكاد .

وهذا كثير جدًا في كتاب عبدالقاهر، وهو صريح رأي عبدالقاهر نفسه من موقف مباحثه، قبل أن تصل إلى غاياته، وأنها لم تفض كل ما في أحوال الكلام، وضروبه، وطرقه ومسالكه .

ولو تجرد لهذا باحث ذو نفاذ، وعزم، واستقصاه وحقق القول فيه، لكان ذلك عملًا جليلًا.

وقد قلت: إن عبارة عبدالقاهر التي أشار فيها إلى رحابة الأبواب التي أقصر فيها كلامه دالة على أنه كان يرى أبعادًا رحبة، وصورًا وطرقًا، ومذاهب، وأنها كانت تتكاثر بين يديه، وتتزاحم.

ويمكن أن ينفتح لنا الباب الذي رأى منه هذه الرحابة وهذه الكثرة، وذلك إذا مضينا على طريقه الذي أسس عليه علمه، وهو استقصاء كلام العرب، ودعك من هذه الهرطقة التي تعدّه تلميذًا لأرسطو، فليس لها دليل واحد مقنع، أقول: إن طريقه الذي أسس عليه علمه هو استقصاء كلام العرب، واستخراج الطرق والأساليب، والضروب، وتأسيس الأقسام على هذا الواقع، الذي جرت به ألسنة أهل الطبع، وهذا هو الذي تكاثر بين يدي عبدالقاهر، وأثرى به أبوابه، وأشار إلى من بعده بمواصلة النظر فيه ثم هو

يتكاثر، ويتنوع ويتغير، بتغيّر الأحوال والأزمان، والثقافات وأطوار الحضارة، وغير ذلك مما تتنوع به اهتمامات النفوس، ومغازيها في مبانيها، وبذلك يتواصل النظر، ويتجدّد على أساس من واقع اللسان، وأدبه، وليس غير.

ثم إن تصنيف ومدارسة هذه الطرق، والضروب واللطائف ليست مما يؤخذ بالهوينا كما يقول، وإنما يحتشد لها من يصبر، ويثابر، ويعرف كيف يعطي للحقيقة حقها من الصبر والصدق، والتدبر، والمعاودة، لأن هذا تأسيس لمعارف، وليس لغوًا تجري به الألسنة الثرثارة، الفارغة، التي ضلت حقائق المعرفة، وحبب إليها العبث واللغو والطعن في الكَمَلَة من علماء الأمة واستمرأت ذلك وسمته علما، أو تجديدًا للعلم، وراج ذلك ويروج، وأخذه ويأخذه الصغير عن الكبير، كل ذلك في غيبة الوعي المستنير.

التراث حركة تأمل وإبداع

العدد (٢٤٧) ص (٤٠)

لاريب أننا لم نقطع مسافة طويلة في الطريق الذي بدأناه يوم أن فاجأتنا أمم الغرب بنهوضها الساطع المبهر، وكان يجب أن يكون سعينا في هذا المضمار أوسع وأسرع، وذلك لأن أثقال التخلّف التي كانت ترزح تحتها أمم الغرب كانت أفظع وأهول ممّا قيّد حركتنا، وأطفأ جذوتنا في عصورنا الأخيرة. فالموروث الحضاري لدينا يختلف اختلافًا عظيمًا عن الذي كان عند غيرنا، فقد كانت ظلمة الحياة هناك ظلمة غاشمة جاهلة، حتى كان الفكر في بعض مراحل القوم إثمًا مبينًا، وكان العلماء المبدعون يتهمون بالسحر الأسود، ويمثل بهم جزاء فكرهم وإبداعهم، وربما يحرقون، ولم يحدث شيء من هذا في تاريخنا، فلم يكن الفكر في يوم ما جرمًا، وإنما كان فضيلة، وكان الاجتهاد الواعي- ولايزال- طريق تحصيل الخير في الدنيا والآخرة، وفي الوقت الذي كانت محاكم التفتيش فيه تشعل النار في عقول العلماء من الكيميائيين والطبيعيين، كان العالم المبدع عندنا يلقب بالشيخ الرئيس، أو الإمام، ويفسح له في مجالس العلية، ويعد واحدًا من سراة القوم.

إذن ما هي العلل التي خذلتنا وأتاهت من أقدامنا الطريق؟ والجواب المفصل عن هذا السؤال المهم يقتضي تحليل هذه المرحلة تحليلًا يشمل كل صور الحياة العربية والإسلامية، وهو مما يجب أن تتوفر عليه الجهود، حتى نستطيع أن

نشخِّص هذا الداء، وأن نحدد هذا البلاء الذي يبدو في الحياة العربية كأنه قوة خفية تجذبها دائمًا إلى الوراء، وتدفع عزيمتها دائمًا إلى غير الجهة التي تنصب نحوها.

وسوف أشير هنا إلى واحدة تتصل بهذه العلل اتصالًا وثيقًا، وهي اختلال الرؤية عندنا في مسائل، ما كان ينبغي أن نختلف فيها، وتلك هي موقفنا من التراث.

وهذه القضية كانت من أوائل القضايا التي خاض فيها رجالنا منذ بدء النهضة. وهم من يومئذ ينقسمون في هذا الأمر إلى فريقين: فريق يرى نبذ هذا الماضي، وهذا التاريخ، وهذه العلوم، والأخذ بأسباب الحضارة الغربية حتى نصل في بلادنا إلى ما وصل إليه القوم في بلادهم. وفريق يرى أن انطلاقنا يجب أن يبدأ من قلب هذا التاريخ وقلب هذا التراث، وأن هذا أمر لا محيد لنا عنه، وإذا كان غيرنا قد نبذ تراثه وتاريخه- وهذا لم يحدث- فإن تراثنا يختلف عن تراث غيرنا، لأنه يدور حول كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ولذلك نعتبر الدعوة إلى تخليته في حكم المناوأة لدين الأمة الذي ارتضاه لها ربها، وأتم به نعمته عليها. وظهر فريق ثالث يدعو إلى الوسطية، وهذه الدعوة في كثير من صورها تميل ميلًا واضحًا إلى تخلية التراث، وتكتفي بقبسات منه، إرضاء لمشاعر المسلمين الذين هم مرتبطون أوثق ارتباط بتاريخهم ورجالهم وعلمائهم وعلومهم، وهذه الوسطية عند كثير من أهل التحقيق أخطر من الدعوة التي

وصفت بأنها متطرفة، وذلك لأن دعوة المتطرفين تواجه بقوة وعناد من جمهرة المثقفين المسلمين، في الوقت الذي استطاعت فيه دعوة الوسطية الباهتة أن تكتسب جماهير أوسع، فاضطر كثير ممن عرفوا بالموقف الأول أن ينحازوا إلى هذه الوسطية، ليكتسب كلامهم قدرًا من القبول عند الناس.

وهذه المواقف الثلاثة التي تمثلها مقالات كثيرة، فاضت بها الصحف والمجلات العربية، منذ العقد الأول من القرن العشرين، لاتزال هي بملامحها الأساسية مع ملاحظة ما قلناه من أن كثيرًا ممن كانوا يدعون إلى نبذ هذا التراث قد دخلوا من فريق الوسط.

وعلى مد هذه السنين المتطاولات يوصف المحامون عن التراث وصفًا واحدًا جائرًا ظالمًا، وهو أنهم يدعون قومهم إلى الحفظ واستيعاب مقالة الأوائل ثم لا غير، وأنهم يريدون أن تكون عقولنا أوعية ومخازن لعلوم القدماء، وكان الله يحب المحسنين.

أقول إن هذا التصور لايزال بحكم أقلام الكاتبين على كثرة ما كتب في هذا، ولا تكاد تخلو صحيفة أو مجلة تعالج هذا الأمر من كلام كهذا. وهذا عجيب جدًا وآية بيِّنة من آيات العقم للبيئات التي نعيشها.

والغريب أن أحدهم وهو من أوسع كتّابنا ثقافة، وأرحبهم ساحة، وأنداهم صوتًا، رمز إلى هذا القول الخاطئ الذي يعتقده صوابًا، برمز لطيف في مقال قريب نشرته جريدة الأهرام، هذا الرمز هو صورة تحدد ملامح إنسان

يصلح أن يكون رجلًا وأن يكون امرأة، وقد تكونت الصورة من حروف أبجدية. يعني الإنسان الذي هو صيغ وألفاظ صماء، وليس فيه بصيص من نور الفكر، مع أن الكاتب لا يخلو كلامه من الإشارة الذكية التي تجعل القارئ يتوهم أنه متعاطف مع التراث.

وواضح أن هذا التراث كان غصة حرجة لا تستساغ ألبتة عند فريق من المستشرقين الذين لم يعرفوا بإخلاصهم للعلم، ولم يعرفوا بموضوعيتهم في البحث، من أمثال "جب، ورينان، ومرجليوث"، وأنهم كانوا يعلمون علمًا ظاهرًا أنه سياج هذه الطبائع الإسلامية المتأبية على ما كانوا يريدونه من تقبل المسلمين لأنماط حضارتهم وثقافتهم، والاندماج فيها. وواضح أن فريقًا من النصارى أعلنوا كراهيتهم البغيضة للتراث، واعتبروا الولاء له مرضًا، ونفروا من دراسته والحفاوة به.. واعتبروا ذلك مضيعة للشباب وبعثرة لقوى الناشئة، يقول سلامة موسى الذي يلهج بذكره بعض أدبائنا: إن الذي هو كالمرض عندنا أن نكون على ولاء للثقافة العربية، فندرس كتب العرب، ونحفظ عبارات عن ظهر قلب، كما يفعل أدباؤنا المساكين من أمثال المازني والرافعي، وندرس ابن الرومي، ونبحث عن أصل المتنبي، ثم يقول: وليس علينا للعرب أي ولاء، وإدمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب وبعثرة لقواهم". ويلاحظ أن سلامة موسى يعلن أنه ليس من العرب! وتأمل النص تجد ذلك ظاهرًا، كما أن فكرة الحفظ معلنة من كلام هذا الهالك، كما لاتزال معلنة من كتابات

المسلمين المخلصين المساكين الذين باعدت نشأتهم بينهم وبين تراث أمّتهم؛ فجهلوه وتورطوا؛ فرموه بما رماه به أشد الناس عداوة للعرب المسلمين وتراثهم.

وقارئ التراث يرى أن علماءنا لم يعتبروا الحفظ علما، وإنما المعتبر هو الوعي المستنير بحقائق المعرفة، حتى يأخذ الدارس ما يأخذ ويدع ما يدع، وقد ازدرى علماؤنا من لا تستنير حقائق المعرفة بنور عقولهم، واستصغروا العاجزين عن تأصيل المعرفة والذود عنها، نعم لا بأس بالحفظ والرواية في باب ما يحفظ ويروى كالحديث والشعر والخبر، ولكن يشترط أن تؤازر الدراية الرواية، وإلا كان هؤلاء الحفظة كما يقول أنس بن أبي إياس- وهو مما يتمثل به علماؤنا:

يقولون أقوالًا ولا يعلمونها

ولو قيل هاتوا حققوا لم يحققوا

وهذه المصادر القديمة لا ترى فيها الفكرة معزولة عن الحوار الذي يحيط بها ويبيّن كيف صدرت، وكيف استقامت، وقد يحكي لك قصتها مع العقول التي تداولتها، وكيف قبلها من قبلها، ورفضها من رفضها، وكيف أجملها هذا وبسطها ذاك. وهكذا ترى موقفًا عقليًا خصبًا ورائعًا حول كل مسألة في اللغة والفقه والأصول والعلوم الإسلامية كلها.

وقد كان التيار الغالب في تراث علمائنا هو الإبداع والتأصيل.. وأعني ما

تراه واضحًا في مصادرنا، من التقاط اللاحق فكرة ربما كانت تائهة في تراث من سبقه، وربما قرأها عشرات غيره، وما زادوا على الانتفاع بها كما هي، ثم تجد هذا اللاحق يستخرج من أعماق الفكرة الخاطفة أفكارًا وأفكارًا، وقد يسود بها صحفًا عدة، يفتح بها بابًا من أبواب المعرفة لم يسبق إليه، وقد تكون العلاقة عند القارئ غائمة بين هذا الباب الحافل والفكرة الأولى الخاطفة، وقد تجد الكاتب ينبهك بعد فراغ من بحثه المستفيض الممتع، ويقول لك: وهذا الذي قلناه مستنبط من قول فلان كذا، ثم يذكر لك نصًا لا يزيد في الغالب عن سطرين، وهكذا ترى نفسك أمام معرفة جديدة اخترعها عقل عظيم، وأبى إلا أن يؤصلها ويربطها بتربتها، ثم ترى أمانة علمية سامية، لأن هذا العالم الجليل رأى أن هذا الباب، وإن كان من نبعه هو إلا أن الذي فجره هو مقالة فلان هذا وإن كانت خاطفة طائرة.

وهذه قيم علمية ومنهجية من تراثنا جديرة بأن يقف عندها كتّابنا ليضعوا أيدينا على حركة عقول المبدعين، وترى عيوننا كيف كانت تتحرك هذه العقول العظيمة، وهي في هذا المخاض الأعظم، وفي تلك اللحظات الرائعة.. لحظات إبداع المعرفة وإخراجها من مكان الغيب، وكيف كانت عين الريض المرتاض ترى الفكرة "الجنينية" وهي ثاوية في ضمير الفكرة وكيف شقت عنها، وكيف استخرجتها، ومؤلفات القرن الرابع والخامس توشك أن تكون كلها من هذا الباب الذي لا نتعلم فيه العلم فحسب، وإنما نتعلم أيضًا كيف بنت العقول

العظيمة صروح المعرفة. اقرأ كتاب "الخصائص" لأبي الفتح تجد البحث الممتع الذي لا تجده في غيره، وإنما تراه لأول مرة وهو يتقاطر من فكر هذا العالم الجليل تقاطر قطرات الضوء، ثم تجده يقول لك في نهاية الباب: وهذا ما أشار إليه صاحب الكتاب أو صاحب النحو، أو ما نبهني إليه قول أبي علي كذا، ثم يذكر لك نصًا لسيبويه أو للفارسي ربما كان جملة واحدة، ولكن هذه الجملة، كانت بمثابة بذرة غرست في عقل خصب، ثم تعهدها الرجل بالنظر والمحاورة والتفتيش، حتى أخرج منها خبأها ومرعاها. وشواهد ذلك كثيرة، وليس المجال مجال استشهاد، وإنما المقصود، بيان أن الأفكار لم تتداولها عقول أهل العلم للانتفاع بها فحسب كما تتداول أيدينا العُمْلَة مثلًا، وإنما كانت تجد في قرائحهم حضانة خصبة عليها عين ساهرة، فلاتزال تربو الفكرة فيها، حتى تصير بابًا من أبواب المعرفة، حرة فينانة، وصدق الله إذ يقول: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ (إبراهيم: ٢٤).

وهذا شيء، والحفظ الأهم الذي يوصف به التراث وحماته شيء آخر، وهدى الله أصحابنا الذين يتوارثون هذه الأحكام الفاسدة كابرًا عن كابر.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وصَلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى أصحابه ومن تبعهم بإحسان.

حتى لا ينقطع ميراث النبوة

العدد (٢٨١) ص (٣٦)

لم تكن حياة العرب العقلية قبل الإسلام تدور حول مذاهب وقضايا فكرية يتدارسونها، وينبغ فيها أذكياؤهم، ويصنفون في أطرها، فهذا فيلسوف، وهذا مؤرخ، وهذا ناقد كما كان عليه الحال في الأمم الأخرى، مثل الفرس والبابليين والمصريين واليونان، فليس من العرب مثلًا من يؤمن بعقيدة الخلاص، وظهور الرسول المخلِّص في الزمن المقبل الذي يلقي بردًا على اللهب، ويتكفّل برعاية جميع الناس، ويقضي يومه وهو يلم شمل قطعانه، كما كان يؤمن قدماء المصريين، وليس من العرب من يؤمن بعودة مردخ إلى الأرض، ليقمع الفتنة ويطهرها من الفساد، أو يؤمن بظهور رسول من إله النور، كما كان يؤمن الفرس.

لم يؤمن الجاهليون بشيء من هذا، لأنهم كانوا لا يطيقون ترحيل حل مشاكلهم حتى يظهر الرسل المترقبون، فقد كانوا يقومون هم أنفسهم بذلك، فإذا كان المصريون ينتظرون من الرسول المرتقب أن يلقي البرد على اللهب، وأن يلم شمل قطعانه، فقد كان الجاهلي قادرًا على أن يلقي البرد على اللهب بنفسه إن أراد ذلك، أو يضرم اللهب ويملأ به الأرض إن أراد ذلك.

ثم إن المذاهب الفكرية والفلسفية والحضارات العقلية إنما نبعت في تاريخ الأمم من هذه المنابع الاعتقادية، ولذلك اتسعت دائرة الفكر الفلسفي

في هذه الأمم، كما اتسعت دائرة الأوهام والأساطير والرموز والآداب، وتنوعت، وانحصر كل ذلك في حياة الجاهليين، وبقي الشعر وحده، ثم لم يدونوه في كتاب، وإنما حوته صدورهم، وهذا أمر قدره الله، وهيأ له علله وأسبابه، لأنهم ظلوا صفحة بيضاء، حتى نزلت فيهم كلمة الله، ودخلوا في دينه أفواجًا، وبدأت العلوم الإسلامية تتسلسل من النبع الطهور الذي تلقى الوحي، وبيّن للناس ما أنزل إليهم ﷺ.

وأخذ هؤلاء يتلقفون ما يسمعون، وتزكو نفوسهم بما تسمع، وتفجرت ينابيع العلم في هذه الصدور، واتسعت دائرة النور، وزحفت جيوش الفاتحين وسحقت أوهام الخلاص، ومخاريق سدنة الهياكل وأصحاب الأسرار، ودخل هذا الدين ما دخل عليه الليل، وقامت حلقات العلم في أرجاء بلاد الإسلام، واتقدت جذوة العقل الإنساني، وتسامى البناء الفكري والحضاري الذي تأسس على كلام الله وكلام نبيه محمد ﷺ، وترامت أضواؤه في آفاق الأرض؛ فخلّصت العقل الإنساني من ظلمات الجهل والوهم، والوهن.

كما لابست التراث العقلي للأمم التي كانت لها حضارات غابرة تراكمت في أحقاب تلو أحقاب، وداخَلها ما داخَلها من خطل وزيف؛ فخلّصت كل ذلك، واستخلصته من هلاك محقق حين أطبق الجهل والقهر على أبناء هذه الأمم، وعجزوا عجزًا مطلقًا عن المحافظة عليه، وقدمت هذا العطاء السخي للعقل الإنساني؛ فاقتبس منه ما اقتبس، مما أضاء السبيل إلى الحضارة المعاصرة،

وكان طلّاب العلم من المسيحيين يحضرون حلقات الشيوخ في الأندلس ويأخذون عنهم العلوم التي حفّزت عقولهم، والتي نقلوها إلى الممالك الأوروبية، وهم بمثابة الآباء الأولين لرواد النهضة، لأنهم صاروا جزءًا من تراث هذه الأمم، وجذورًا في شجرة المعرفة تمدها بالعطاء والازدهار. ولكن أين العناصر التي يمكن أن تشكل ميراث النبوة في هذا التراث الفكري المتسع؟

لاشك أن إرث رسول الله ﷺ فينا هو بيان الحلال والحرام، وهذا البيان يتطلب ضروبًا من المعرفة لا يتم إلا بها، وهي: دراسة اللغة، والنحو، والتصريف، والأصول، والفقه، والتفسير، والحديث، والعقائد، والرواية، والمعاني، ومصطلح الحديث، والشعر، وعلم الرجال، وفروع دراسة اللسان من لهجات، وغريب، وعلوم القراءات، إلى آخر هذه البنية المتماسكة، والتي تعين على الاستنباط والقياس والاجتهاد.

ومن ظن أنه يقرأ الكتاب والسنة وهو بمعزل عن هذه العلوم، ثم يستخرج الحلال والحرام؛ فقد ظن وهمًا لاريب فيه، ولم يدع هذا أحد من كتّابنا، إلا بعض كتّاب القصص والمفكرات والمسلسلات، وهؤلاء لا يلتفت إليهم عند أهل الرأي؛ ثم إن عامة المسلمين يسقطون كلامهم حين يزعمون أنهم قادرون على الاجتهاد في باب الفقه، ولا يأخذون عنهم شيئًا.

وكثير من كتابنا المنافحين في صحفنا عن شريعة الله، والذين لم يدرسوا أصول المعرفة الفقهية دراسة تؤهلهم للرأي والفتيا، إذا جاؤوا عند الحلال والحرام توقفوا وأحالوا القضية إلى العلماء، ونحن بالطبع لا نعني تحصيل الأحكام الفقهية من كتب الفقه، لأن هذا يقرؤه الطلّاب المبتدئون ويقعون عليه، وإنما نعني فقه الكتاب والسنة، واستخراج أحكام الحلال والحرام فيما يواجه المسلمين من أقضية وأحوال، وتحديد شرع الله منها، وهذا هو جوهر الإرث الشريف، لأن رسول الله ﷺ ترك فينا ما إن تمسكنا به لن نضل، وهو كتاب الله وسنته ﷺ، وليس المراد بالضلال أن نجهل أحكام العبادات مثلًا، وإن كان الرجل يدخل الجنة لأنه كان يحسن الوضوء، وإنما المراد ضبط الحياة الإسلامية على صراط الله المستقيم.

وهذه العلوم التي هي جوهر حضارتنا وإرث نبينا ﷺ، والعين التي نرى بها صراط ربنا المستقيم، قد أُبعدت إبعادًا كاملًا في نظام التعليم المدني الذي قام في أقطار المسلمين، وله برامج إن لم تكن واحدة فهي متقاربة جدًا، وقد قامت هذه البرامج على طرح هذه العلوم كلها، إلا قشورًا لا تصل أبناءنا بهذه المنابع وصلًا حيًا، يشكل عقولهم ويوجه فكرهم.

هذه العلوم غريبة في مدارسنا وكلياتنا ومعاهدنا، ونسميها علوم المشايخ، لأنه لم ينظر فيها إلا هُم، أما بقية المثقفين والمفكرين والكتّاب فليس لهم بها صلة إلا أن تكون صلة واهية جدًا، وهذا أمر تفردنا به من بين الأمم،

فليس هناك أمة تقوم برامج التعليم فيها على مجافاة إرثها الحضاري والفكري، إلا أن تكون أمة مقهورة في سلطانها، مغلوبة على أمرها، أو مغبونة في رأيها، هذا مع أن الأمر عندنا له مزيد اهتمام، لأن هذا الإرث هو فقه الإسلام، وهو الماضي كله، والحاضر كله، والمستقبل كله، ومع هذا كله زحزحت هذه العلوم من مواقعها الطبيعية في مناهج التعليم التي هي منابع صياغة عقول أبنائنا، وانحصرت في حلقات المشايخ في الأزهر والمعاهد الدينية التي أنشئت في الأقطار الإسلامية لدراستها، وكان يجب أن تظل حية فاعلة في عقول كل المثقفين من أبناء المسلمين الذين تتحرك بهم الحياة الفكرية في المجتمع الإسلامي، ويوجهون حياته العقلية، ومن هنا كان التوجيه الفكري والثقافي في بلاد الإسلام توجيهًا لا يتجه إلى الكتاب والسنة كجهة تتأرجح حولها "بوصلة" العقل الإسلامي، أو كعبة يولي الفكر وجهه نحوها مهما تنوعت اهتماماته، واختلفت محاريبه، كما هو الحال في تاريخنا كله، قبل أن توضع أقدامنا على غير طريقنا، في هذا العصر الحديث، وكما هو الحال في الأمم ذات التاريخ والإرث الحضاري.

بدأ التعليم النظامي الذي يستقطب أكثر أبنائنا، والذي صار " إلزاميًا" في أكثر أقطار المسلمين موليًا وجهه نحو مناهج الغرب، وموليًا ظهره نحو الحضارة الإسلامية والفقه الإسلامي بمعناه المتسع الذي كانت فراقده قد غابت في غبار أحقاب التخلف التي مرت بالأمة منذ زمن بعيد، وكان المقصود

بإنشاء التعليم النظامي إخراج هذه الأقطار من بؤرة التخلّف، وكان أخصر طريق أمام من أقاموه أن يقتبس من الأمم الناهضة، وقد حدث التباس شديد في معرفة الطريق الصحيح، ولولا ذلك لكان من الممكن أن يكون هناك تخطيط لنظام التعليم وبرامجه، ينقل الأمة من بؤرة التخلف إلى عصر النور، وهي في إطار حضارتها ومعارفها وإرثها الشريف، ولو حدث ذلك لكان أكثر عطاء وأجدى في صقل الشخصية المتميزة القادرة على البناء الفكري والحضاري المتميّز، ولكن هذا هو الذي كان وعليه مضى الحال، ولايزال يمضي.

وانحصرت العلوم العربية والإسلامية وإرث النبي ﷺ -كما قلنا- في الأزهر والمعاهد المناظرة في الأقطار الإسلامية، ونشطت آنذاك وواكبت النهضة، بل إن هذا العلم الشريف الموروث بعناصره القوية الفاعلة في بناء الإنسان؛ هو الذي أمدّ الأمة في مصر وفي غير مصر بالكتّاب والمفكرين الذين كان لهم أثر ظاهر في كسر شراسة الصليبية الثقافية التي هاجمت أقطار الإسلام بضراوة وحقد، يضمر في أحشائه روح الانتقام من هذه الحضارة التي قرع فرسانها أبواب بلادهم يومًا ما، وبقيت هذه المعاقل القائمة على إرث النبي ﷺ بمثابة الأوتاد في ديار الإسلام، وكان هذا النشاط المزدهر بمثابة العوض عن هذه الجموع الهائلة من أبنائنا الذين ابتلعهم التعليم العام، وغيبهم عن إرثنا الحضاري، إلا معلومات سطحية عن هذا الإرث، لا تغني شيئًا في باب فقهه ومعالجته، وكان أهل الرأي منا ينكرون ذلك.

ثم رأينا أنفسنا - وهذا هو العجب - في موقف نحسد فيه هذا الأمس الذي مالت فيه كفة الميزان، لأنها الآن قلبت رأسًا على عقب.

أما الأزهر الذي هو شيخ الجامعات، فرغم توجه الجامعات الإسلامية إليه وما نقرؤه من كلمات رؤساء الوفود التي يذكرون فيها الأزهر وعلمه وجلاله وتاريخه، وهم صادقون، لأن هذه الكلمات تجري في خواطرهم وهم في أروقة المسؤولين في الأزهر، وجلال التاريخ الحافل لاتزال بقاياه.

إلا أن الذي أكتبه لك وبين يدي هول الواقع، لأني أدرِّس في كلية تسمى الكلية الأم، وقد عشت فيها عمري كله متعلمًا ومعلمًا، ورأيت فيها نضارة العقول الحية، وكيف كنت أحسب حسابي بدقة قبل أن أتكلم بينهم في مسألة، وكيف كنت أعد دروسي قبل لقاء طلّابي، ثم الآن أستمع إلى الطلّاب فأرتاع حين أذكر أن هذه العقليات هي التي نُعِدُّها لتحمل إرث النبي ﷺ، وكيف يكون حال هذا الإرث الشريف حين نضعه في أيدي هؤلاء ليبلِّغوه عن رسول الله ﷺ، وهذا هو الهمّ الذي لا يطاق احتماله، من واجبي أن أضع أمام الرأي العام الإسلامي حقائق ما أجد - وإن كان قلبي يقطر حسرة ولوعة- ولو كتمت ذلك لكنت من المشاركين بالصمت في ضياع إرث النبي ﷺ، وإذا فعلنا ذلك فكيف نلقاه ونرجو شفاعته؟

ويجب أن نتذكر أن طلّاب المعاهد الدينية التي أقيمت في الأقطار الإسلامية لتؤدي في هذه الأقطار ما يؤديه الأزهر في مصر قد أصابها ما أصاب

الأزهر، وهؤلاء يفدون إلينا في الأزهر لإتمام الدراسة الجامعية أو ما هو فوقها، ويظهر لنا التدهور المفزع في مستواهم، لأننا كنا ندرِّس لنظرائهم قبل ضرب التعليم الديني في العالم الإسلامي.

ونحن نطالب بالنهوض بمستوى طلّاب هذه الجامعات والمعاهد. ونشير إلى أن هناك سبيلًا آخر أمام الجماهير المسلمة التي تحرص على إرث نبيهاﷺ، وهذا السبيل هو إقامة معاهد دينية خاصة على غرار المدارس الخاصة، ويدفع الطلّاب فيها مصاريف كما يدفعون في المدارس الخاصة، وسوف يكون الإقبال عليها موفورًا، ويجب أن توضع مناهجها بطريقة مدروسة دراسة ذات بصيرة واعية، لأن هذا تخطيط لإحياء حضارة وفكر، وقيام نهضة حقيقية تقوم على علومنا ومعارفنا وبعقولنا، كما قامت النهضات في كل أمة ناهضة، ثم هو غرض نبيل تتوافى على المشاركة فيه الهمم النبيلة، وبلادنا مليئة بالمدارس الأجنبية التي يداخلها ريب لاريب فيه، فلا أقل من أن تقوم مدارسنا التي هي جديرة بأن تنتمي إلينا، تهيئ أبناءنا إلى الاستمداد من معارفنا وثقافتنا، ويبقى فينا رجال يعرفون الحلال والحرام، ويتوارثون العلم الذي يحمله عن كل خلف عدوله، كما قال المصطفى ﷺ، وتبقى تلك الطائفة التي تنذر قومها كما قال الحق جل جلاله: ﴿فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ

إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾ (التوبة:١٢٢).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

البَلاغة الغائبةُ

العدد (٢٨٧) ص (١٢)

الاعتقاد بأن القرآن الكريم أعجز الجيل الذي نزل فيه، والأجيال اللاحقة، وأنه سيظل كذلك، معجزًا لأجيال الناس، حتى ينتهي التكليف بقيام الساعة، هذا الاعتقاد واحد من عقائد المسلمين، كالاعتقاد بالبعث والحساب والجنة والنار، ولم يجر فيه خلاف واحد، لأنه صريح لفظ القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (البقرة:٢٣-٢٤).

وهذا قاطع في أن الناس لن يفعلوا، أي: لن يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله..

وقد اجتهد علماؤنا في بيان الشيء الذي به صار هذا الكلام العربي مغايرًا لكلام البشر ومعجزًا لهم، مع أن ألفاظه هي ألفاظهم، وتراكيبه هي تراكيبهم، وذهبوا في ذلك مذاهب.. ليس القصد من هذا المقال أن يدل عليها، وإنما القصد أن يدل على واحد منها، كأنه غائب عن أقلام الباحثين، فلم تتناوله كما تناولت غيره، ولم تحلله كما حللت سواه، مع أنه من أدق ما قيل في هذا الباب وألطفه، وأحكمه، وأفضله، ثم هو حين يتسع يفتح بابًا من العلم النافع في دراسة اللغة والبيان والشعر، فضلًا عن الإعجاز. ولعل صعوبته ودقة تحليله

كانت من أهم أسباب غيبته، وعدم تداوله واشتهاره.

ويقتضي البيان الواضح لما يراد بيانه أن نقول: إن المدقق في كلام علماء القرن الثالث، وهم الذين وسَّعوا الكلام في الإعجاز، وصار مَنْ بعدهم عيالًا عليهم؛ أقول: إن المدقق في كلامهم حول الإعجاز البلاغي للقرآن يجد كلامهم بدأ متجها وِجهتين في بحث هذه البلاغة المعجزة:

* وجهة تبحث عناصر البلاغة المشتركة بين القرآن وكلام الناس من شعر وخطب ووصايا وغير ذلك، ثم تبيّن أن هذه العناصر في القرآن بلغت من الدقة والسمو والغزارة والإصابة، مبلغًا يفوت الكلام كله ويقطع الأطماع، ويقهر القوى، ويقضي بالعجز الشامل المطبق الذي تستوي فيه الأقدام.

فإذا كانت بلاغة الشعر والأدب تدور حول التشبيهات، والمجازات، والأمثال والكنايات، وفنون النظم، فإن هذه الفنون نفسها هي التي بنى عليها القرآن، لأنها أصول بلاغة اللسان، ولكنها في القرآن شيء، وفي الشعر والأدب شيء آخر، فإذا جمعت ما دبجته ألسنة الشعراء من فاخر التشبيه، وراقك ذلك وَحَسُنَ عندك، وكثر بين يديك، ثم وضعت بإزائه واحدًا من تشبيهات القرآن، رأيت البلاغة العالية في الأدب والشعر قد انطفأ ضياؤها، وذهب بهاؤها، وكان شرط بقائها ألا توضع بإزاء القرآن.. وهذا هو الشائع الذي عليه الدرس عند العلماء، وهو جيد بالغ.

* الوجهة الثانية: تبحث وجوه البلاغة التي توجد في القرآن، ولا توجد

في كلام الناس، هي البلاغة التي يصح أن نسميها البلاغة القرآنية، وتكون التسمية حقيقية لا تجوز فيها، وهي ما أردناه بالبلاغة الغائبة، لأنها في كلام العلماء عزيزة نادرة، ولا تستطيع أن تجمع من تراث علمائنا في بابها صفحات قليلة صريحة تكشف وجهها، وإنما تجدها في كلامهم كالخبيء الذي يشار إليه فيبحث عنه على حد تعبير الشيخ عبدالقاهر.

ويبدو أن طريقهم في استخراج البلاغة الخاصة بالقرآن، والتي لا توجد في كلام البشر، كان تحليل الكلام الصادر عن الإنسان، واستخراج الأصول العامة التي تراها في كل ما يصدر عن الإنسان من قول بليغ أو غير بليغ، وتراها لا تتخلف عن كلام الناس، كأنها جزء من ما هيته - أعني حقيقته- وقد عالجوا الكلام لذلك علاجًا طويلًا، فطنًا، يقظًا، متنبهًا، حتى أصابوا هذه الأصول، وهي - فيما أراه وراء كلامهم - يجمعها أصل عام هو: كينونة الإنسان في كل ما يصدر عنه من قول، سواء كان شعرًا، أم نثرًا، أم كلامًا يتناقله مع من حوله في شؤون حياته.

الإنسان هناك وراء كل ما يدور به لسانه، أنت واجده لا محالة إذا بحثت عنه، ثم هو هنا بمعناه العام المطلق الذي يندرج تحته أفراده من زيد وعمرو. وإنما يتميّز أدب الأديب، وشعر الشاعر بمقدار ما يستطيع تجديده من هذه الخصائص الإنسانية العامة، وبمقدار ما يستطيعه من تضييق هذه الدائرة، حتى يكون أدبه دالًا على خصائصه هو، وأحواله هو، وطبعه هو، وإنما تكون منزلته

بمقدار ما يصيب في هذا الباب، فهناك مَنْ تراه غائمًا في أدبه، تائهًا فيه تلوح لك منه شيات مبهمة، وصفات غامضة، هو إنسان يصدق عليه أن يكون زيدًا وعمرًا وبكرًا وخالدًا، لأنه لم يستطع بعد أن يحدد له سمتًا خاصًا به، ونهجًا دالًا عليه، وإنما لايزال ينهض بغير جناحه، ويستقي من غير سحائبه.

وهناك مَنْ استقام له نهجه الخاص به، ومذهبه الذي يسلكه، لأنه كابد في ذلك، حتى صار أصلًا بنفسه، وهو الذي تراه في كل بيت يقوله، وفي كل سطر يكتبه، لأنه يحرص على أن يخاطبك بعقله هو، وبلسانه هو، فإذا قارب مذهبه مذهب غيره - للأسباب التي تتقارب بها المشارب والمنازع وهي كثيرة - رأيته عند التدقيق ومعاودة النظر يتميّز بتوقيعات نفسه، وأحوال طبعه، حتى لتسمع رنته الخاصة، وتذوق طعمه الخاص.

اقرأ شعر الأعشى وسوف ترى الأعشى بشخصه يتسكع في أوديته..

واقرأ شعر زهير وسوف تراه في شعره متدثرًا بحكمته، واقرأ شعر النابغة وسوف تراه في شعره وعلى عاتقه هموم بني ذبيان..

كل واحد من هؤلاء له خواطره وله اهتماماته، وله لواعجه، وشؤونه وشجونه، وسبكه وتوقيعه، وضَرْبُه، وهو كائن بشخصه في كل ذلك، وهذا ظاهر، ومن الواجب أن يكون ظاهرًا جدًا.

فإذا تركنا ذلك، وقرأنا البقرة وآل عمران أو ما شئت من المصحف، فإننا لن نجد في آيه ولا في لفظه هذا الإنسان الذي كنا نجده هناك، وأحسب أن هذا

هو الذي أدركه الجيل الأول، لما كان يسمع الآية والآيتين، فيبسط يده إلى رسول الله ﷺ مبايعًا، وكان قبيل ذلك يكاد يتميز من الغيظ، وإنما حدث في هذه الدقائق القصيرة شيء اقتلع كل ما في نفسه، حتى كأنه كفأها كما يكفأ الإناء، ولابد أن يكون ذلك ثمرة إحساس فاجأ النفس وهيمن عليها وقهرها، وليس إلا أنه تعوَّد أن يرى ملامح الإنسان في كل ما تسمعه أذنه من كلام الناس، فلما سمع هذا القرآن لم يجد فيه ما اعتاده، وإنما وجد الله فاستيقن.

اقرأ أول سورة طه التي هدمت جاهلية عمر رضي الله عنه، فسوف تجد فيها: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ۝٤﴾ (طه:٤)، وتجد فيها: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ (طه:٥)، وتجد فيها: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦﴾ (طه:٦).. وهذا هو الله رب العالمين.

واقرأ مثلًا أبياتًا لزهير بن أبي سلمى الذي كان يحبه عمر، ويصفه بأنه أشعر شعراء غطفان، سوف تجد رجلًا حائرًا أمام «دِمْنَة» أمِّ أَوْفَى يتأمل فيها بعد عشرين حجة ولأيًا يعرفها بعد توهم.

وأظن أنه قد بانت القضية، وبقي أن أدلك على موضع استخراج هذا الكلام من تراث علمائنا، وأول ما يلفتك إلى هذه البلاغة الغائبة هو أن الخطابي يكرر كلمة «البلاغة الخاصة بالقرآن»، وإذا قلّبت كلام العلماء فلن تجد فيه صفحة صريحة تصف لك هذه البلاغة، وإنما تجد محاولة غامضة في كلام الخطابي، ثم تجد محاولة أوضح قليلًا في كلام الباقلاني، وأحسب أنه أفاد من

إشارات الخطابي، ولذلك عولت عليه هنا مع أن الخطابي هو الأصل الأول والملهم بالفكرة.

لا تجد في كلام الباقلاني ولا في كلام الخطابي كلامًا صريحًا في المسألة كالذي قلته: وهو تحديد الأصول العامة لبلاغة كلام الناس، وأن هذا هو ما ينعكس على الكلام لا محالة من أحوال نفس قائله، وخصائص طبعه وملامح شخصه وغير ذلك، ثم بيان خلو القرآن من هذا.

وإنما تجد الباقلاني يدلك دلالة ظاهرة على أن ناقد الشعر لا يلتبس عليه شعر أبي نواس بشعر مسلم، ولا شعر البحتري بشعر أبي تمام، وما هو من هذا الباب، لأن كل شاعر يسكن في شعره.

ثم يحدثك عن وجوه الإعجاز، ويذكر لك منها كلامًا، تفهم منه أن هناك مظاهر ضعف عامة في الشعر، تجري في شعر الفحول كما تجري في شعر غيرهم، وأن هذا بالطبع هو ضعف الإنسان، ثم إن القرآن يخلو من هذا خلوًا كاملًا.. وهذا يعني أنه لم يصدر عن هذه النفس التي يعتريها الفتور ضربة لازب، وسأكتفي هنا بإشارات سريعة، حتى لا يطول منا الكلام.

ذكر الباقلاني أن كل شاعر من البشر له باب يبرع فيه، فإذا ما تجاوزه إلى غيره ضعف شعره ولان، وانحلت عقدته، ولذلك قالوا: إن امرأ القيس أشعر الناس إذا ركب، وأن زهيرًا أشعر الناس إذا رغب، والنابغة أشعر الناس إذا رهب، والأعشى أشعر الناس إذا طرب، فجعلوا لكل واحد من هؤلاء ميدانًا

يبرع فيه، ولو أنك نزعت لسان امرئ القيس من بين فكيه، أو يقول كما قال النابغة يعتذر للنعمان:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني

وتلك التي أهتم منها وأنصب

لما قال هذا، وإنما يحسن أن يقول:

ولكنما أسعى لمجد مؤثل

وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

وهكذا، ثم إن هؤلاء الأربعة هم شيوخ الشعراء، وهم القدوة، وهذا يعني أن قصور القدرات البيانية عن الإجادة في كل ميدان وصف لازم لا ينفك، ولا نستثني منه شاعرًا من البشر.

وهذه الحالة التي تحددها النفس الإنسانية بطاقاتها المحدودة لا تجدها في المصحف، وإنما تجد أبوابًا من المعاني المتنوعة، ثم تجد درجة البيان والرقي البلاغي تجري في هذه الأبواب على ضرب واحد، فالكلام الواصف آيات الله في الكون، والحاكي قصص الأنبياء، والواصف أحوال الآخرة، والوعد والوعيد، والشرائع، كل ذلك يجري الكلام فيه على قدم واحدة في عروق البلاغة لا يختلف ولا يتلون..

وهذا قاطع في أن هذا الكلام ليس مخرجه الإنسان، وليس معدنه، وهذا جيِّد ويقتضينا درسًا متسعًا، نضع فيه اليد على مواطن القوة في شعر كل

شاعر.. ومواطن الضعف أيضًا، وندرس ذلك ونبينه بيان من يحدد الشيء ويصفه.

وذكر الباقلاني أيضا من وجوه الإعجاز أن تفوق الشاعر والأديب إنما يكون بمقدار ما يرد في كلامه من الفِقَر العالية والكلمات التي هي كعروق الذهب على حد وصف البحتري، فقد تقرأ القصيدة ولا تخرج منها إلا بالقليل الذي تراه، كقول أبي نواس: «وحططت عن ظهر الصبا رحلي»، وقول زهير: «ولا محالة أن يشتاق من عشقا»، وقوله: «وهل ينبت الخطي إلا وشيجه»، وقوله: «وكل فحل له نجل»، وقوله: «وحيثما يك أمر صالح فكن».. إلى آخر ما يشبه هذا.

ثم إن تكاثر هذه الغرر أو قلتها وتناثرها هو الذي نحدد في ضوئه طبقة الشاعر، وليس هناك شعر بني كله من هذه الكلمات المختارة النادرة، وذلك لأن هذا يناقض فطرة الإنسان التي يعتريها الفتور والاختلال، تراه يتفوق ويحلق ويسمو إلى عوالي الذرى، ويقتنص كلماته من هناك، ثم ما يلبث أن تهوي به أجنحته إلى الأودية، فتنال منها كلامًا آخر، وهكذا..

بلاغة القرآن

القرآن كله بني من هذه الكلمات التي ليست من عوالي الذرى فحسب وإنما هي مما هو فوق الفوق، يروعنا قول زهير: "وهل ينبت الخطي إلا وشيجُه"، فإذا ما قرأنا قوله تعالى: ﴿ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ ﴾ (آل عمران:٣٤)؛

انطفأ إشعاع كلام زهير، ويروعنا قول ذي الرمة: «وساق الثريا في ملاءته الفجر»، فإذا قرأنا قوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾ (التكوير:١٨)؛ رأينا ملاءة فجر ذي الرمة خرقة بالية، وهكذا..

ثم إن غرر الشعراء التي تصير رمادا بإزاء ما في المصحف قليلة كما قلنا، وهي التي تحسب للشاعر، وتوضع في ميزانه وتعد له، والقرآن كله مبني من هذا الذي فوق المختار، ويمضي كله على نسق واحد. اقرأ ما شئت وسوف تجد كل جملة في المصحف صالحة لأن تكون وحدها قلادة الجيد وقاعدة التجويد كما يقول علماؤنا. تأمل: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ٣﴾ (القمر:١-٣).

ترى كل واحد من هذه الجمل شيئًا برأسه، خذها من آخرها وقل: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾، ستجد كلمة تامة ورائعة ونبيلة ثم قل: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ وهكذا.

والباقلاني حين اعتبر هذا وجها من وجوه الإعجاز إنما كان يعني استحالة صدور كلام لا يعتريه اختلال من نفس يعتريها اختلال، وتتوارد عليها الأحوال، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله.

قيم منهجية يجب أن تعود

العدد (٣٠٨) ص (١٧)

هناك ضوابط تشيع في الحياة الفكرية، فتحكم حركتها وتضبط نزواتها، وبمقدار دقة هذه الضوابط وتوافرها يكون حظ المجتمع من السمو، وحظ المرحلة من الخصوبة والعطاء الحضاري المفيد، وذلك لأن صحة الضوابط الفكرية وصرامتها تعني المزيد من الصحة والسداد للأفكار الدائرة في المجتمع، والمندسة في طياته، والمشكلة لوجهته، وطبعه، ومنحاه، وهذا يثمر الاتجاه الصحيح، كما يثمر فضائل النفوس، وفضائل العادات، وأنماطًا راقية من السلوك في مختلف المجالات..

وفي مقابل هذا تجد في غيبة هذه الضوابط شيوع الأفكار الرديئة الضارة، والتي تتسرب إلى طيات المجتمع، وتداخل العقول والقلوب، وتشكلها بشكلها الرديء، فتثمر الأنانية والانتهازية، والاستخفاف بالقيم الأخلاقية الرفيعة، وكل ما يوجه المجتمع إلى منحدرات التخلف، ويحثه على السير فيها بخطى وِسَاع، ولا اعتراض لأحد على القول بأن حياة أي مجتمع ترجع إلى مجموعة أفكار وقيم، تشكل الدوافع والنوازع والتوجهات، وأن المجتمع يرتفع أو ينخفض على وفق هذه الدوافع والمنازع.

وإذا قلنا: إن تاريخ أي مجتمع وقصة حركته في أية مرحلة متكاملة هي في الحقيقة قصة أفكار، لم نكن مخالفين للصواب، لأن الإنسان ابن فكره، تحكمه

الفكرة، تسيره فيسير، وتحركه فيتحرك، مطاوعًا لها، ومندفعًا في موجباتها، وهذا يجعل لهذه الضوابط التي تضبط الحياة العقلية الأهمية القصوى في تاريخ الإنسان.

والفكرة المدققة والمحررة هي الكلمة السديدة التي دعا القرآن المجيد إليها، وجعل صلاح حال المجتمع مرتبطًا بها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١)، تأمل الربط بين صفاء الفكرة وصلاح الأعمال.

والفكرة المحررة المصفاة هي الكلمة الطيبة التي هي كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين، تأمل الأكل والخير المتواصل الذي تثمره الكلمة- الفكرة - تجده ثمرة الاستقامة على الجادة، ولاشك أن كثيرًا مما تعانيه حياتنا على مستوى الأمة كلها راجع إلى شيوع أفكار غير مدروسة، وقد تقبّلها كثير منا ممن ليست لديهم وسائل تحرير الأفكار، وأن هذا أدى إلى شروخٍ خطرةٍ في بنيان المجتمع الإسلامي، ترى هذه الشروخ بل وهذا التمزق والتشرذم في شريحة الشباب الذين هم معقد الأمل، وتقوم عليهم - عند غيرنا - عيون ساهرة تتفقد كل ما يجري في محيطهم، ونحن نراهم وقد تفرقت بهم السبل، وصاروا فرقًا ومزقًا، يضرب بعضهم بعضًا، ثم إنهم هم الذين سيؤول إليهم كل شيء، فإذا ظلوا كذلك، وصار الأمر إليهم فقد ضاع منا كل شيء، ولهذا وجب علينا التنبيه والتبصير بما يجب.

وأفضل ما نذكره في مواجهة طوفان الأفكار غير المدروسة هو أن نذكر لمحة من عناية سلفنا بدراسة الفكرة وتحريرها وتنقيتها، حتى إذا صرنا على قبس من هداهم راجعنا ما يدور في الساحة، وانتقدناه وأخذنا صحيحه، وتركنا زائفه، والأفكار كالمعادن، منها الفكرة الصحيحة الرائعة النفيسة التي هي كالذهب المصفى، ومنها الرديئة التي تشبه الصدأ المستقذر، ولكنه قد يلتبس بالنفيس، ونار الفكر والروية هي التي توقد عليه فينماز وينفى خبثه، وبذلك تعصم القلوب من أن يفتك بها رجيع صدأ العقل، وتعصم الحياة من أن تقع فريسة لهذا الوباء.

وقد توفر للحياة الفكرية في أمتنا التي نحن أبناؤها ما لم يتوفر لغيرها من الضوابط التي تكفها عن نزوات الهوى والاختلال، وليس هذا القول صادرًا عن حمِّيَة الانتماء لهذه الأمة، لأن القول الصادر عن مثل هذا لا تسمعه إلا أذن قائله، وإنما هو الواقع التاريخي الذي يقره غير المسلمين، وبيان ذلك أن العلوم التي دارت فيها الحياة الفكرية، ودارت بها علوم ثلاثة أصول، هي علوم التفسير، والحديث، والفقه، وهي علوم ذات طبيعة خاصة، فالتفسير يعني بيان مراد الحق من كلامه سبحانه، وبيان دينه الذي أنزل، وشرعه الذي شرع، وأقل قدر من الاختلال في بيان هذا الأمر العظيم يعني أننا نتقول على الله ما لم يقل، وهذه بائقة تنخلع لها قلوب العلماء، فكان لابد من المراجعات، والمبالغة في التدقيق، وملاحظة كثير من الأصول والاعتبارات؛ حتى لا نسقط في مهلكة

الافتراء على الله رب العالمين، وقل مثل ذلك في الحديث والفقه الذي هو علم الحلال والحرام، يعني: الشريعة والدين.

وقد وجب علينا أن نراجع هذه العلوم، لنتعلم منها كيف نحاور الفكرة ونستنبطها؟ وكيف نسبر أغوارها، ونميز جوهرها؟ وهذا - من حيث نظرت إليه - مظهر من مظاهر التقدم الفكري الواعي النبيل.

ثم إن هذا الحذر والتدقيق والتروي والتوقف في قبول الأفكار قد انتقل من هذه العلوم الثلاثة إلى كل ضروب المعرفة الإسلامية والعربية؛ لأنها نشأت كلها في أحضان الكتاب والسنة والحلال والحرام، فسلكت نفس المنهج الفقهي الحذر، وصارت القاعدة اللغوية كأنها قاعدة فقهية، من حيث خضوعها للمراجعة والتدقيق، حتى نتأكد من صحتها واطِّرادها؛ لأن هذه القاعدة اللغوية ستنتقل إلى حقل التطبيق، ويفسر بها كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ويستنبط بها الحلال والحرام، فإذا كان بها وهن من بعض جهاتها أدى هذا إلى الاختلال في التفسير والاستخراج، وهذا هو الأمر المخوف، والشواهد على هذا لا حصر لها، لأنك إذا وضعت هذا بين عينيك، وراجعت علم الطبقة الأولى من علمائنا وجدت هذا ظاهرًا في كل ما كتبوه، وأكتفي بنموذج مختصر جدًا، راجع كيف حدد العلماء دلالة كلمة "إنما" وكيف استقصوا اللغة، وكلام العلماء الأوائل الذين كانت السلائق الصحيحة لاتزال مسعفة لهم، وهم علماء القرون الثلاثة المفضلة، قرنه ﷺ، والذي يليه، ثم الذي يليه، وكيف انتهى

النظر والتقصي إلى القول بأنها تفيد الحصر، ثم دخلت الكلمة بعد ذلك ميدان التفسير، فقال العلماء في آية مصارف الزكاة في سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (التوبة:٦٠).

إن مقتضى الحصر في "إنما" أن يكون هؤلاء وحدهم هم مصارف الزكاة، فمن صرفها لغيرهم يكون صرفها في غير الوجه الشرعي. تأمل امتزاج اللغة بالفقه وتداخل العلوم وتشابكها، وكيف يكون فصلها - الذي نفعله الآن- إزهاقًا لروحها، وكذلك قالوا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ﴾ (البقرة:١٧٣)، إن مقتضى معنى الحصر في "إنما" أن تكون هذه لا غيرها هي المحرمات لحومها، وما عداها فليس كذلك.

وهكذا ترى الممارسة العقلية للمعرفة، لابد أن تكون في قمة اليقظة والوعي والتنبه؛ حتى لا تسقط في الميدان فكرة زائفة، فتفسد الكثير والكثير.

أدعو إلى العودة إلى هذا النور الذي طمسناه بأيدينا؛ حتى لا نقع فريسة الأفكار الضارة الرديئة التي تطرحها أياد خبيثة في ساحتنا، فتحدث في صفوفنا هذه الشروخ وهذه الحيرة التي قذفت شبابنا في قاع التيه، وصاروا كما وصفهم محمد إقبال - رحمه الله - يحملون في أيديهم كؤوسًا فارغة يعبون منها الوهم، وهم يعتقدون أنهم يروون.

وأرمي هنا بسؤال سريع يشير إلى الكأس الفارغة التي صارت في أيدي

بعض علمائنا في جامعاتنا وأقسامها العلمية، هذا السؤال هو: إذا كانت علاقة الدرس اللغوي بالدرس الفقهي كما نرى، فما هي النتائج المترتبة على دعوة إخواننا اللغويين المحدثين الذين يرسخون الدرس اللغوي المقتبس من كلام الآخرين، ويطاردون الدرس اللغوي الذي رأيناه يتشابك مع بقية فروع العلوم؟ وأدع القارئ يجيب لأشير في إيجاز إلى أمور تتعلق بتنقية الفكرة ونقدها وتصحيحها الذي عقدت عليه هذا المقال، وكيف سَخِرنا منها بَدلًا من أن ننتفع بها، فوقعنا فيما نحن فيه.

من طرائق علمائنا أنهم كانوا يحاورون الفكرة على مستويين، الأول: الحوار الذي يكون بين المؤلف وفكرته التي يعرضها، ترى المؤلف يناقش الفكرة التي يطرحها، ويجاذبها، يهزها، ويكشف الأستار عن كل جهاتها، حتى يرى القارئ قوتها، وضعفها، وسلامتها واعتلالها، وترى هذا في أسلوب سخر منه من لا يعلم، وهو قول علمائنا: "فإن قُلْتَ، قُلْتُ"، يعني إن اعترضت على الفكرة بقولك: كذا وكذا، فإني أجيب عن اعتراضك بقولي: كذا. المؤلف هنا يلابس عقل القارئ ويحاوره، وهذا شيء حيوي جدًا، وطريقة فذة في تربية العقل وتعليمه، كيف لا يتقبل إلا بعد الحوار.

والمستوى الثاني: من حوار الفكرة هو حوار العالم لفكرة غيره. وهذا شائع في الكتب كلها، وقد أفرد علماؤنا طريقة من التصنيف لهذا الباب، وهو المقصود هنا، هذه الطريقة هي الكتب التي ألفت في شكل دوائر، بعضها ينبثق

من بعض، واللاحق فيها أفسح مدى من السابق، وهي طريقة الملخصات، ثم الحواشي على هذه الشروح، ثم التقارير على هذه الحواشي، والملخص يتناول بابًا من أبواب العلم، ولم يكتب هذه الملخصات إلا الأفذاذ من العلماء، لأنها في صورة غريبة من التركيز، وقدرة بارعة على تخليص اللغة من الزوائد، والألفاظ فيها كأنها أوعية متسعة الدلالة، وأراه مذهبًا في البيان أرفع من مذاهب كتاب الرسائل، لأنه بمثابة توقيعات علمية، الكلمات فيها كأنها مسافات تطوى، وحاول أن تنظر في متن من المتون، وتأمل كيف تتدفق الألفاظ بفيوض المعاني والإشارات، وكيف كان هذا التدفق مضبوطًا محكوم الجماح..

هذا الملخص تراه بعد ذلك، وكأنه جذر شجرة باسقة متسعة الأفنان والثمار، وذلك لأنه يتناوله عالم آخر، ويرى فيه إجمالًا يجب أن يفصل، ومرجوحًا يجب أن يرجح، وغفلة عن أصل يجب أن ينبه إليها، فيكتب له شرحًا، ويقف مع عبارة المصنف، ليكسبها مزيدًا من الصقل، ويبني كتابه على مثل قوله: "قال المصنف رحمه الله"، ثم يأتي عالم ثالث فيراجع هاتين الدائرتين ويتراءى له مما بينهما مجال حيوي للمداخلة، فيكتب حاشية على الشرح، تندس بين المتن والشرح، لتخلِّص ملتبسًا، وتكشف غامضًا، وتدفع اعتراضًا، وهكذا يأتي الرابع فيراجع هذه الدوائر الثلاث، ثم يكتب دائرة رابعة تسمى تقريرًا، وتكون بمثابة القول الفصل فيما عساه يكون قد أثير من خلافات، وفيما عساه يكون قد بقي من غفلات.

وهذا الباب من أبواب التصنيف له دلالة ناصعة على العناية البالغة بالكلمة والفكرة، والصبر على مراجعتها وتخليصها، والصبر أيضًا على الإخلاص لها، حتى إذا ما داخلت الفكرة قلوب القراء داخلتها وهي مقطرة منتقاة، بمصفاة تلو مصفاة، الكل يجتهد في أن يبعد عن المعرفة، التي هي غذاء العقول، والتي هي الجزء الحي المتحضر في الإنسان، كل ما ليس سديدًا، والعلماء بهذا كأنهم حراس على الحياة العقلية، يقفون على منابعها، فلا يجري فيها إلا ما صُفي من الكدر، وأنا لا أريد أن أقول: إننا نؤلف كتبًا في صورة الملخصات والشروح والحواشي، لأن لكل عصر طرائقه، وإنما أقول: إن الذي يجب أن يعود إلى حياتنا العقلية من هذا هو اليقظة الواعية التي تحاور كل فكرة تطرح على الساحة، حتى لا تجد الأفكار الرديئة - مع هذه اليقظة - لها قرارًا، فضلًا عن أن تبقى وتتأصل وتحدث في كياننا هذه الندوب الموجعة، ولا مفر لنا من أن نستيقظ من رقدتنا الطويلة التي غابت فيها عنا الحقائق، وزيّن لنا السوء فرأيناها حسنًا، حتى صارت أمثال هذه التصانيف التي بيّنّا شيئا من قيمتها موضع سخرية وغمز ولمز، يتضاحك بها الفارغون، ويقولون: إنها هي التي أفسدت عقول الشيوخ لطول ملابستهم لها! ومثل ذلك مما هو أشبه بكلام أحلاس الحوانيت.

فهرس المحتويات

المحتـــــوى	الصفحة
التصدير..	٥
نبذة عن المؤلف..	٧
فهرس مقالات أ.د. أبوموسى في مجلة "الوعي الإسلامي"	٨
علماؤنا وتراث الأمم..........	٩
مقالات مختارة للمؤلف نشرت في مجلة "الوعي الإسلامي"............	٥٧
مهلا أيّها الكبار..	٥٩
قراءة في مقدمات كتُب القدماء..	٦٧
التراث حركة تأمل وإبداع..	٧٧
حتى لا ينقطع ميراث النبوة..	٨٤
البَلاغة الغائبةُ..	٩٢
قيم منهجية يجب أن تعود..	١٠١

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية

أسست عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م
الوعي الإسلامي
AL-Waei AL-islami
مجلة كويتية شهرية جامعة

القوس العذراء

وقراءة التراث

أ.د/ محمد محمد أبو موسى

القوس العذراء وقراءة التراث

بسم الله الرّحمن الرّحيم

تعد رسالة "القوس العذراء" من روائع الأستاذ محمود شاكر التي تحتاج إلى فضل نظر، حتى ننتفع بها كما ينبغي من حيث هي منهج في قراءة التراث.

وحالها في ذلك كحال كثير من روائعه وودائعه التي هي أحوج إلى المدارسة والتحليل، والمناقشة، لأنها منهج مستقل وطريق مغاير، وحسبها أن تكون حياتنا الفكرية والأدبية في ميزانها حياة فاسدة، وأن الكتب التي أثّرت فيها تأثيرًا بيِّنًا وطُيِّر ذكرها في الناس كتب فارغة، وأن تقاليدها العلمية التي ترسخت فيها ونميت إلى رجال عرفوا بأنهم بناة هذه التقاليد؛ كل هذا زيف.

ثم - وهذا مهم - إن تاريخ هذه الأمة، وحضارتها، وتراثها ورجالاتها، كل ذلك كان ولايزال مستهدفًا لهذه الحركة؛ فقُبِّح التاريخ، وزيِّفت الحضارة، وامتُهن التراث، وغبِّر في وجوه الرجال.

وجرثومة هذا كله ترجع إلى من نسميهم الكبار، ثم أخذه عنهم من يأخذ من غير نظر، وراج ذلك، وشاع، وألف رغم نكره، حتى صار أبناء هذا الجيل:

"يتلمسون المعابة لأسلافهم، وآبائهم في خبر مطروح أو كلمة شاردة، أو ظاهرة محدودة، فيبنون عليها تعميمًا في الحكم، يتيح لأحدهم أن يسقي ما في

نفسه من حب القدح والتردي في طلب المذمة، أو أن يتقلد شعار...التجديد، أو الإغراب، طلبًا للذكر، وحبًا للصيت"[1].

ويتناول هذا البحث رسالة "القوس العذراء" من حيث هي منهج في قراءة التراث، وقد عنينا بالتراث تحقيقًا ودراسة، على الحد الذي كان ينافي هذين البابين، ولكن العناية بقراءة التراث على الحد الذي سوف نبينه في هذا البحث، والتي تستخرج مضمره، وتجهر بهمسه، وتبين عن وحيه، فذلك ما لم نصل فيه إلى حد يذكر.

وقد رأينا في هذه الرسالة طريقًا قِوَمًا لهذا الباب، وكأن الأستاذ شاكر شق هذا الطريق، وصيّره مستتبًا لاحبًا في هذه الرسالة، وأحسب أن هذا من مقاصده.

****

من الحقائق المقررة أن نهضات الأمم لا تكون إلا بعقول أبنائها واجتهاداتهم الخلّاقة، وأن تجديد العلوم، والمعارف، ليس له إلا طريق واحد، هو أن نُعمل عقولنا في هذه العلوم والمعارف، وأن نستخرج منها مضموناتها المضمرات في كلماتها، أو التي هي مندسة مبهمة في نفوس كاتبيها، غمغمت بها آثارهم غمغمة تائهة لا يلتقطها إلا الباحث الدّرِب.

(١) الشعر، ص١٣.

هكذا يجب أن يكون تجديد علومنا ومعارفنا، وهكذا فعل الناس في عصرنا، وهكذا فعل سلفنا في عصورنا الأولى، ولم نعرف أمة بنت حضارتها بعقول غيرها، ولا جددت معارفها بمعارف غيرها.

لن يكون هناك نمو إلا إذا كان الامتداد امتدادًا من داخل الحياة الفكرية، والأدبية، يتناسل بعضه مع بعض، كما يتناسل جيل بعد جيل، ولن يكون هناك تطور إلا إذا استخرجت هذه المرحلة مما قبلها، ولن يتم هذا إلا إذا دارت عقولنا وقلوبنا في هذا الفكر الذي بين أيدينا، ودارت به، وعانت تحليله، والاستنباط منه، وكانت هذه الأفكار هي مادة الدرس في حلقات العلم، في كل جامعة. ومادة النظر بين يدي كل كاتب، الكل متجه إليها، متعاون في بابها، وحينئذ ينبلج نور معرفة جديدة، وتتخلق حياة فكرية وأدبية جديدة، تولد مما بين أيدينا، وتنسب إلينا، وننسب إليها، ونقدم من خلالها تجربتنا وذاتنا، ورسالتنا، ويقرأ الناس فيها كفاح أفئدتنا، التي تستمد مددها من نسيجها الحضاري وتاريخنا المتميز.

والنهضات الأدبية والفكرية، تعني مزيدًا من التألق، لرجالات الفكر والأدب في تراث الأمة، مهما أوغلوا في القدم.

فلايزال "هوميروس"، ورجالات عصره، يتألقون في سماوات أقوامهم، مع اختلاف الأطوار والأحوال.

وقد أكسبت النهضة الحديثة لأمم الغرب، آثار حكماء اليونان مزيدًا من العناية، والدراسة، أزكت هذه الآثار، وكشفت جوهرها، وأبانت عن معادنها، وذلك يفوق بكثير ما أتيح لها في غير هذا العصر، ثم إن هذا العصر لم يتجاوزها إلا بعد أن اتكأ عليها، وأدخلها في صميم بنيته، ولو بعث هؤلاء الحكماء وقرؤوا الحواشي والأعلاق، التي علقها الناس على كلامهم لعرفوا بعضًا، وأعرضوا عن بعض.

وقد مضينا من أول إفاقتنا في هذا العصر على غير هذا الطريق، ولم يكن موقفنا من أعلام العلم في أمتنا موقفًا منصفًا، لم نعكف على تراثنا عكوفًا يجعله يتوهج في ضمائرنا، ولم تتألق في سماواتنا فراقدنا، وإنما خبت، وطمسناها بأيدينا.

تألق في سمائنا رجال آخرون، لا نحصيهم عدا، وحيثما قرأت لمعت كوكبة، من الأسماء الأعجمية بين عينيك، وصرنا نمثل هامشًا على كتاب الحضارة الغربية المسيحية.

وفي الوقت الذي نقول: إننا يجب أن ننتفع بتجارب الآخرين، نغمض عيوننا عن تجربتهم الحقيقية في تأسيس نهضتهم، ونكتفي باصطناع ما أبدعوه، لأن ذلك أيسر السبيلين.

وقد أُبْعِد كثير من أذكيائنا عن هذا التراث الذي غُيِّب عنهم إبَّان تكوينهم، ووقر في نفوسنا أنه قديم يرتبط مضمونه بأزمنته، وأننا حين نواجه عصرنا به

كالذي يدخل ساحة الحرب متقلدًا سيفًا ورمحًا، وقالوا: إن الشعر القديم شعر عالج مشاكل جيله، وأحسن وصف النوق، والأطلال، وتلك أمة قد خلت.

وفي هذا السياق تأتي "القوس العذراء"، لتضع منهجًا في القراءة، والتمثل والفهم، والاستخراج، ولتبعث الشماخ بن ضرار القيسي، وترفعه فوق القمم العوالي في دوحة الشعر صدّاحًا، شجي الغناء، ثم تنطقه بالقول الفصل في قضية من أطرف القضايا.

***

ونبدأ بالوقوف عند هذه الرسالة، لنتعرف على جدة أفكارها، وطرافة قضاياها، وحداثتها، وليس هذا مدخلًا للمقصود، وإنما هو من جوهره، من حيث إن غاية البحث هو الكشف عما انطوت عليه هذه الرسالة، من طريقة في استنطاق كلام القدماء واستخراج دلالاته، وتحليل إشاراته.

مضمون الرسالة هو ما أنطق به الأستاذ شاكر شاعرنا القديم، وما استخرجه من تحت لفظه.

وتدور هذه الرسالة حول جملة من الأفكار والخواطر والوسوسات، انبعثت في نفس كاتبها بلقاء بينه، وبين صاحب لا تبلى مودته، دار بينهما حديث في شأن إتقان العمل، وقد ذكر الأستاذ شاكر أنه لما قفل عائدًا إلى داره أبى هذا الحديث "إلا أن ينقلب عائدًا معي في الطريق، يسايرني، ويصاحبني، ويؤنس

وحشتي، ويُسِرُّ إليّ بوسوسة خفية من أحاديثه التي لا تتشابه، والتي لا تتناهى، والتي هي أيضًا لا تُـمَلُّ" (١).

أما الوسوسات التي أسرّ بها هذا الحديث إليه، فهي النظر إلى كل حي غير الإنسان من حيث إتقانه لما هو بصدده، ثم النظر إلى الإنسان من هذه الجهة، فكل حي غير الإنسان يمضي في أمره، وفي تدبير حياته، وحياطة معيشته، على سنة لا تتبدل، وهَدْي واضح لا يلتبس، تمر الأحقاب، والقرون وتختلف البقاع، والأحوال، وتأتي من هذه الأحياء أجيال بعد أجيال، "والنهج في كل درب من دروبها هو هو لا يتغيّر، والهدى في كل شأن من شئونها هو هو لا يختلف، تولد الذرة من النمال، وتنمو، وتبدأ مسيرتها في الحياة، وتعمل فيها عملها الجد، وتفرغ من حق وجودها، ثم تقضي نحبها، تموت، هكذا هي مذ كانت الأرض، وكانت النمال، لا تتحول عن نهج، ولا تمرق من هدى، وتاريخ أحدثها ميلادًا في معمعة الحياة، كتاريخ أعرق أسلافها هلاكًا في حومة الفناء، لا هي تحدث لنفسها نهجًا لم يكن، ولا هي تبتدع لوارثها هديًا لم يتقدم" (٢).

لم تدرك هذه الكوائن الفروق بين الأشياء؛ فعاشت بمنجاة من حومة الاختيار، تلك التي سقط فيها الإنسان وقلق، وتحيّر، فمايزت أفراده، واختلفت أعصره، وأجياله، وقامت له حضارات، وانهدمت حضارات.

---

(١) القوس العذراء، ص١٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠.

يقف الكاتب عن هذا العالم الحي الأعجم، الذي لا تختلف أواخره عن أوائله، والذي ترى أجناسه كأن كل جنس منها فرد واحد، يتكرر في هذه الآحاد التي لا تتناهى ولا تختلف، والذي يعيش في الزمن وهو مسالم له، فلم يقلق الذي فات منه بخبر سلف صالح ولا طالح، ولم يعرف له تاريخًا نبيلًا ولا خسيسًا، ولم يتطلع إلى الغد كيف يكون؟ وإنما طرح ذلك كله.

ثم وقف الأستاذ بعد ذلك، عند الإنسان وعمله؛ فأفصحت نظرته عن إدراك عميق لقدرات الإنسان، وطاقاته الهائلة.

وذكر أن هذا الإنسان كان في مطلع فجره على حال تشبه أحوال غيره، من حيث قوة الفطرة، واقتيادها له، وإيقاع حركته على وفق تصاريفها، وظل أمره كذلك زمنًا.

"فلما ثبت عليها وتأيّد، وتأثل فيها وعمّر، نظر إلى معروفها فاعتبر، وهجم على مجهولها فاستنكر، فكأنه من يومئذ حاد عن المنهج الذي لا يختل، ومرق من الهدي الذي لا يتبدل" (١).

وهذا هو الموقف الفاصل في مسيرة الإنسان على هذه الأرض، ومرده إلى عقله "الذي نظر إلى معروفها فاعتبر، وهجم على مجهولها فاستنكر"، وحينئذ تاهت منه بوارق الهدي القديم، الذي كان يمضي بنوره، كما هو حال كل كائن غيره، من تلك التي بقيت ماضية على شريعة من غرائز النفس لا تتبدل.

---

(١) القوس العذراء، ص٢٣.

وقد وصفت الرسالة حالة الإنسان بعد ما تاهت منه هذه البوارق وصفًا بليغًا جاء فيه: "ابتلي من يومئذ فتمرس، وأُسلِمَ لمشيئته فتحيّر، جار وعدل، فعرف وجرّب، وأخطأ وأصاب، ففكر وتدبّر، نزع إلى النهج الأول، فأخفق وأدرك، تاق إلى الهدي القديم، فأعطى وحرم، احتفر ذخائر الفطرة، فأكدت عليه تارة، ونبعت، التمس شوارد الإتقان، فندت عليه مرة، واستقادت" (١).

وهكذا صار الإنسان في كبد يتقاذفه اليأس والأمل، ويضنيه النجاح والفشل، واحتمل همًا شريفًا، من ويلات كدّه، نحو النبع الأول.

ثم إن إتقان العمل، وأخذ النفس ورياضتها على طريقه، والمثابرة في ذلك، هو في حقيقته سعي دائب، نحو اكتشاف الذات، ورحلة جيَّاشة، تتوخى القبس الهادي، الذي خبا في أعماق الإنسان، وطمسه قلقه وتوقه، إتقان العمل سعي نحو المجهول داخل النفس، وهَتْك أستاره، وتمزيق حجبه، وبمقدار ما يحصل الإنسان من درجات الإتقان يكون قربه من شاطئ الحقيقة الأزلية المطمورة في داخل نفسه، والتي ضلّها يوم قلق وحاد.

وهذا هو الوجه في ربط قيمة كل امرئ بما يحسنه، كما قال علي رضي الله عنه، فقيمة المرء في تحقيق ذاته المنعكسة في إتقان عمله.

"ولو دان الإنسان بالطاعة لفطرته المكنونة فيه منذ ولد، لأفضى إلى خبئها التليد إذا ما استوى نَبْته واستحصد، ولصار كل عمل يتعلمه تدريبًا لما استعصى

---

(١) نفس المرجع، ص٢٤.

منه حين يلين وينقاد، وتهذيبًا لما تراكم فيه حتى يرِفَّ ويتوهج، فإذا دَرِبَ عليه وصَبرَ أزال الثرى عن نبع منبثق، فإذا ألح ولم يمل، انشقت فطرته عن فيض متدفق، ويومئذ يُسْفِرُ لعينيه مَدَبُّ النهج الأول، بعد دروسه وعفائه، ويستشري في بصيرته وميض الهدي المتقادم، بعد ركدته وخفائه" (١).

وهذه المعاني كما ترى غريبة مستورة، لا أعرف أحدًا شق حجبها بهذا البيان، وأبرز مكنونها بهذه الدقة قبل هذه الرسالة، ومثل هذه المعاني التي تقتنص الخواطر الذكية شواردها، لا تتلبس غالبًا باللفظ المحكم، والرصف المتقن، لأنها لما تزل نافرة عن الألفاظ، والأمر هنا على خلاف ذلك.

والذين يعالجون صنعة البيان يقولون: إنهم إذا أرادوا العبارة عن معان مألوفة، انسالت الألفاظ على أسنة أقلامهم، أما إذا وقعت في أفئدتهم شوارد المعاني وأوابد الخواطر، والتمعت في آفاقهم سوانحها، فإنهم أحيانًا يجدون ألسنتهم فارغة من الألفاظ، وكأن اللغة طُيِّرت منها، فإذا قاربتهم قاربتهم وهي أبيّةٌ أرنة.

وهذا التفكير في هذه المسألة حين يقارن بما يقوله أهل النظر فيها يرى حيويًا، وعلميًا، لأنه يجعل إتقان العمل والدأب فيها طريقًا وأصلًا إلى استنباط ودائع الفطرة، وإثارة كوامن الطاقات، وتفجير ينابيع ثرة، ومذخورة في النفس يمكن أن تستفيض وتستبحر، وبالعمل وحده، وبالمثابرة وحدها؛ يكون

---

(١) القوس العذراء، ص٢٨.

التفوق؛ ويكون إبداع روائع الأعمال في الفكر، والصناعة والأمر كله، بالمثابرة وحدها يمكن للمرء أن ينتقل من طور من أطوار الفكر والعمل إلى طور آخر، أسمى وأسنى، وقل مثل ذلك في الجماعات والأمم.

الفلاسفة لا يودعون أفكارهم حول هذه المسألة، تلك الروح العملية الخلّاقة، ثم إنهم وإن كانت طبيعتهم النظر المتعمق، لم ينفذوا إلى هذه الأبعاد التي رمى إليها الأستاذ شاكر، من حيث التدسس في غيب التاريخ، والحديث حول الإنسان، وهو على مدب أقدامه الأول.

ونظرتهم تدور حول القول بأن "الحيوان كله غير الإنسان يعمل صنائعه بالإلهام، والإنسان يتصرف بالاختيار، وقد منح الحيوان نصيبًا من الاختيار يعينه على اضطراره، كما أن الإنسان رزق قدرًا من الإلهام يعينه على اختياره. وقوة الاختيار في الحيوان كالحلم، كما أن قوة الإلهام في الإنسان كالظل" [(١)].

*****

العمل الذي هذا وصفه عمل مطلق غير مقيد بعلم ولا صناعة، ولا فن، وإنما هو كل ما ينفصم عن الإنسان مما أحكمه، وهو على مدرجة سعيه الحثيث المستكشف لبوارق الهدي الأول، يستوي في ذلك أعمال الذهن، وأعمال اليد، وأعمال القلب، فكلها لا تنفصم عن الإنسان - الذي هذا خبره - إلا وهي مصبوغة بأصباغ قلبه، وموسومة بوسمه، هذا ما عهد الناس وصفه بالفنون.

---

(١) ينظر: الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص١٤٥. بتصرف.

لأن الأشياء إنما تتشح بوشاح نفوس فاعليها إذا كانت تعبيرًا عن لواعج هذه النفوس، أما ما يعاينه الإنسان في تدبير حياته، وحياطة معيشته فليس من ذلك، وإنما هو من العمل.

وقد أوجزت الرسالة طبيعة الفرق بينهما - كما يتصوره الناس - في صورة سؤال يرد عليها لم تفرق بينهما، وإنما جعلت الإنسان مفتونًا بكل ما ينفصم عنه، لأنه أفنى فيه ضرامًا من قلبه.

يقول الأستاذ: "فلقد خشيت أن تقول لي: إنما أنت تحدثني عن الفن، فهذه صفة أهله، لا عن العمل، فليس هذا من نعته! وكأني بك قد قلت: إن الفن ترف مستحدث، أما العمل فشقاء متقادم. هذا مما تعجَّله الإنسان وعاناه لقضاء حاجته، وذاك مما تأنى فيه وصافاه للاستمتاع بلذته، والإنسان إذا جوَّد العمل، فمنتهى همّه أن يجعله على قضاء مآربه أعون، أو يكون له في أسباب معيشته أنجح وأربح، أما الفن، فثمرة لغير شجرته، يسقيها مُتَأَنِّقٌ من ينابيع ثرة في وجدانه، ويُنْضِجُها مشغوف بلاعج من وجده وافتتانه، في غير مخافة مرهوبة، ولا منفعة مجلوبة، فذاك إذن بطبيعته مستهلك ممتهن، وهذا لحرمة نشأته مذخور مكرم" (١).

وهذا البيان الذي ترى، لا أحسبه جرى في زماننا مع أحد كما جرى مع هذا القلم، ولا أحسب هذه اللغة الشريفة كشفت عن جوهرها الشريف لواحد من

---

(١) القوس العذراء، ص٢٦.

أهل زماننا كما كشفت جوهرها الشريف لهذا العالم الجليل، لما رأته حفيًا بها أنبل ما تكون الحفاوة، وفيًا لها أكمل ما يكون الوفاء.

أما جواب هذا السؤال فهو أن وضع العمل هذا الموضع، وربطه بالنفس الإنسانية على هذا النحو، إنما هو أمر كان يعد فوق الإنسان عن تالد فطرته، وانسلاخه من ركاز جِبِلَّته.

أما الإنسان الذي يكون صقله للأشياء، وصبره على تخليصها وتقويم عوجها، صبرًا على تخليص جوهره هو، وإزالة لما تراكم على نبعه، فالعمل والفن عنده سواء، لأن كلًا منهما "لا يفصم عنه حين يفصم، إلا مطويًا على حشاشة من سر نفسه وحياته، موسومًا بلوعة مُتضَرِّمَةٍ، على صبوة فَنِيَت في عشرته ومعاناته" (١).

ورأس الأمر عندنا في هذه الرسالة أنها رجَّعت هذه الأفكار الحديثة جدًا إلى صورة جرت في شعر الشماخ، وهو أوصف الشعراء لحمر الوحش، حتى قال عنه الوليد بن عبدالملك – وقد سمع شعره فيها -: "إني لأحسب أحد أبويه كان حمارًا". وذلك لمعرفته الدقيقة بطباعها، وإبانة بيانه عن نوازعها، وأهوائها، وقد ذكروا في خبره أيضًا أنه أرجز الشعراء على بديهة، وأنه أوصفهم لقوس، فموضوع العمل والفن، واتفاقهما في طبيعة ممارسة الإنسان لكل منهما، وأن

(١) القوس العذراء، ص٢٩.

العمل "في إرث طبيعته فن متمكن، والإنسان بسليقة فطرته فنان معرق"، يبدو بعيدًا عن أفق شاعر هذا خبره.

وقد استخرج الأستاذ شاكر صورة حية لأفكاره هذه من أبيات في قصيدة الشماخ:

عفا بطن قوٍّ من سُلَيْمى فَعَالزُ

فذاتُ الفَضَا فالُمْشْرِفَاتُ النَوَاشِزُ

وقد شبّه الشاعر راحلته في هذه القصيدة بحمار الوحش، وذكر قصته مع أتانه في مَرْعَاه، وفي مطلبه للماء، وجرى لسان الشماخ مع حمار الوحش وأتانه، وهو يطلب لها مواقع الماء، بعد ما طوى ظِمْأَهَا في بيضة القيظ(١)، وقد أحسن وصف حالها، وقلقها، ومورانها، وانغلّ حتى رأى بعيونها، واندسّ حتى أبان عن "راجفات الحذر".

ومن بين ما ذكره من الصور، صورة رام لا يداوى رميُّه متنكِّبٌ قوسًا، أتقن القوّاس صنعها، وصبر عليها حتى قضاها حق إحسانها، وقد ذكر الشماخ قصة القوّاس مع القوس، مبتدئًا من اختياره لفرعها الذي نمى في كن ساتر حماها العيون فأخطأتها، وكيف عكف هذا الرجل على هذا الفرع فوضعه في الشمس عامين حتى شرب ماء لحائه، ثم أقام عوجه، بالثِّقاف، والطَّريدة، حتى لَانَ، ثم

---

(١) طوى ظمأها: زاد في عطشها. وبيضة القيظ: شدة الحر.

أعدَّ له وترًا كالشعاع حرًّا "على أربع قد فتل"، ثم ألبسها حبيرًا يصونها من الندى.

فلما وافى بها أهل المواسم رآها بيِّعٌ أغلى لها السَّوم فطلبها بإزار شرعبيّ من أجود الثياب، وأربع من السيرا، أي الثياب المخططة، وأواق من الذهب "ثمان من الكوري حمر كأنها من الجمر"، "وبردان من خال" ، "وتسعون درهمًا" ...

ولكن الثمن الربيح، لم يدفع القوّاس إلى إنجاز البيع، لأن هذه القوس بعض منه، لم تنفصل عنه إلا بعد ما أفنى فيها ضرامًا من نفسه، وبعد ما صارت موسومة بلوعة متضرِّمة فنيت في عشرتها كما يقول الأستاذ.. ولهذا آمر نفسه:

"أيأتي الذي يعطى بها أم يجاوز"...والناس من حوله قد أذهلهم هذا الثمن؛ فقالوا له: بايع أخاك.

فلما شراها فاضت العين عَبرةً

وفي الصَّدرِ حَزَّازٌ من الوجد حامزُ

ودونك هذه الأبيات:

١ - فحلّأها عن ذي الأراكة عامرٌ

أخو الخُضْر، يرمي حيث تُكْوَى النّواحِزُ(١)

(١) حلأها: منعها. ذو الأراكة: موضع ماء. الخضر: قبيلة منها عامر الرامي. النواحز: داء يصيب الحيوان في رئته فيكوى في جنبه فيشفى.

٢- قليل التلاد ، غير قوسٍ وأسهمٍ

كأن الذي يرمي من الوحش، تارزُ[١]

٣- مُطِلًّا بزُرقٍ ما يداوى رَمِيُّها،

وصفراء من نبعٍ عليها الجلائزُ[٢]

٤- تخيَّرَها القوّاسُ من فرع ضالة

لها شَذَبٌ من دونها وحواجزُ[٣]

٥- نمت في مكان كَنَّها، فاستوت به،

فما دونها من غِيلِها متلاحزُ[٤]

٦- فما زال ينجو كل رطب ويابس

ويَنْغَلُّ ...، حتى نالها وهو بارزُ[٥]

---

(١) التلاد: المال القديم الموروث. التارز: الذي يبس في مكانه ومات.

(٢) الزرق: السهام شديدة البياض. النبع: شجر تتخذ منه القسي. الجلائز: عصب يلوى على القوس ليشدها.

(٣) الضال: شجر تتخذ منه السهام كالنبع. الشذب: الأغصان المتهدلة من الشجرة.

(٤) كنها: سرها في كن. الغيل: الشجر الملتف. المتلاحز: المتضايق.

(٥) ينجو: ينقطع. انغل: دخل في شيء ملاحم على مشقة. بارز: ظاهر للشمس.

٧- فأنحى عليها ذات حدٍّ، غُرابُها

عدوٌّ لأوساط العِضاه مشارزُ[١]

٨- فلما اطمأنت في يديه..، رأى غنىً

أحاط به، وازْوَرَّ عمن يحاوزُ[٢]

٩- فَمَظَّعها عامين ماء لحائها،

وينظر منها: أَيَّها هو غامزُ[٣]

١٠- أقام الثِّقافُ والطريدةُ دَرْأَها،

كما قوَّمت ضِغْنَ الشَّمُوسِ المَهَامِزُ[٤]

---

(١) أنحى عليها: قصد وأقبل. غراب الفأس: حدها. العضاه: شجر عظيم ذو شوك. المشارز: الشرس.

(٢) ازور: مال وأعرض. يحاوز: يخالط.

(٣) مظعها: وضعها في الشمس لتشرب ماء لحائها.. أي قشرتها.

(٤) الثقاف: خشبة في طرفها خرق يتسع للقوس فتدخل فيها وتغمز حتى تسوى. والطريدة: قصبة مجوفة خشنة الجوف تدخل فيها القوس لتبرى قشرتها. الدرء: العوج. الشموس: القوس القصبية. المهامز: جمع مهماز، تنخس به الدواب لتستقيم. وتقويم ضغنها: تأديبها حتى يلين قيادها.

١١- وذاق..، فأعطته من اللِّين جانبًا
كفى- ولها أن يُغْرِقَ السّهمَ حاجزُ(١)
١٢- إذا أنْبض الرامون عنها، ترنَّمت
ترنُّم ثكلى أوجعتها الجنائزُ(٢)
١٣- هَتُوفٌ..، إذا ما خالط الظبيَ سهمُها!
وإنْ رِيعَ منها أسلمته النواقزُ(٣)
١٤- كأن عليها زعفرانًا تُميره
خوازن عطّارٍ يمانٍ كوانزُ(٤)
١٥- إذا سقط الأنداء، صِينتْ وأُشعرت
حبيرًا، ولم تُدْرَجْ عليها المعاوز(٥)

(١) ذاق: جذبها ليختبرها. وإغراق السهم: أن تستوفي جذبها فتلين فربما قطع السهم يد الرامي، يقول: لها حاجز من القوة والصلابة يمنع لينها أن يبلغ بها الرامي إلى إغراق السهم.

(٢) أنبض القوس: جذب وترها. والجنائز: الموتى.

(٣) هتوف: لها صوت. ريع: ذعر. والنواقز: القوائم.

(٤) الزعفران: طيب أصفر . تميره: تصب فيه الماء لتذيبه. الخوازن: النساء اللاتي يخزن. والكوانز: اللاتي يكنزن.

(٥) الأنداء: جمع ندى. أشعرت: ألبست. الحبير: ثوب من الحرير الناعم. والمعاوز: الثياب الخلقة يلبسها المساكين. لم تدرج: لم تطو عليها.

١٦- فوافى بها أهل المواسم، فانبرى

لها بَيِّعٌ يُغْلي بها السومَ رائزُ(١)

١٧- فقال له: هل تشتريها؟! فإنها

تباع بما بيع التِّلاد الحرائزُ(٢)

١٨- فقال: إزار شَرْعَبِيٌّ، وأربع

من السِّيراءِ، أوْ أوَاقٍ نواجزُ(٣)

١٩- ثمان من الكوريّ، حُمْرٌ، كأنها

من الجَمْر ما أذكَى على النار خابزُ(٤)

٢٠- وبُردانِ من خالٍ، وتسعون درهمًا،

على ذاك مقروظٌ من الجلد ماعزُ(٥)

(١) أهل المواسم: مجامع الناس في زمن الحج. الرائز: المختبر.

(٢) التلاد: المال القديم الموروث. الحرائز: التي تحرز ولا تباع لنفاسها.

(٣) الشرعبي: من أجود الثياب وأغلاها. والسيرا: ثياب مخططة نفيسة. والنواجز: حاضرة غير مؤجلة.

(٤) الكوري: منسوب إلى كور الصائغ، يعني ذهبًا مصوغًا.

(٥) الخال: موضع تصنع فيه الثياب النفيسة. على ذاك: أي مع ذلك، والمقروظ: المدبوغ بالقرظ. والماعز: جلد الماعز، وهو من أجودها.

٢١- فظلّ يناجي نفسه وأميرها

أيأتي الذي يعطى بها أم يجاوزُ(١)

٢٢- فقالوا له: بايع أخاك..، ولا يكن

لك اليوم عن ربح من البيع لاهزُ(٢)

٢٣- فلمّا شراها فاضت العين عَبْرَةً،

وفي الصدر حزَّازٌ من الوَجد حامزُ(٣)

(١) أميرها: الذي يؤامره ويشاوره. مجاوز: يتركه ويمضي.

(٢) اللاهز: المانع.

(٣) شراها: باعها. وحزاز: قاطع يحز حزًا شديدًا. والوجد: أشد الحب. حامز: ممض محرق.

الصورة هنا مثال واضح للأفكار التي ساقها حول إتقان العمل، وكان الشماخ ممن يُتقِنونَ صَنْعَةَ الشعر ويُفْنُون فيها ضرامًا من قلوبهم، وهذا نفس من أنفاسه الصابرة.

ولم تعد أبيات الشماخ هذه كغيرها من الشعر الذي لا نرى فيه إلا وصف الفلاة، وحياتها، وإنما هزتها عقلية حية، فاستخرجت منها هذا الفكر الحي، وكشفت منها عن هذا الجوهر النفيس، وشمخ بها الشماخ على عظماء الشعر ممن استلهموا الهياكل المقدسة، كما قال الأستاذ عادل الغضبان.

******

جعل الأستاذ شاكر هذه الأبيات موضوعًا لقصيدة رائعة فذة، تعد من فرائد هذا العصر، نشر فيها ما طواه الشماخ وأضمره، وفصَّل وأضاف، وأكمل، حتى صارت هذه القصيدة أحفل وأشمل.

وأبيات الشماخ ثلاثة وعشرون بيتًا، والشعر الذي استخرجه الأستاذ منها مائتان وتسعون بيتًا، منها سبعة وثلاثون كانت كالمقدمة. عرض فيها خبر عامر أَخي الخُضْر. وحكاية القوّاس الذي ابتاع منه قوسه، وتناول كل جزئية من الجزئيات التي جاءت في كلام الشماخ بطريقة مفصّلة.

وقد بنيت هذه القصيدة على أسلوب الاستفهام الذي لا يرمي بالمعاني في النفوس، وإنما يحث على استخراجها، ويثير ويشوّق.

وكلمة الاستفهام التي جرت في الأبيات هي كلمة "كيف" التي تبعث الخواطر الداعية إلى معرفة الحال، في كل حدث تناولته جملتها، وهي مناسبة لحديث إتقان العمل، وطريقة تناوله والاستغراق فيه، حتى يصير المعمول جزءًا من العامل، وقد أحاط هذا الاستفهام بكل ما عالج القوّاس واعتمل له، وكان الاستفهام مشوبًا بالتعجب والاستعظام؛ فعظم وقعه.

واقرأ هذه الأبيات:

"فدع الشماخ ينبئك عن قوّاسها البائس في حيث أتاها:

أين كانت في ضمير الغيب من غِيلٍ نَماها؟(١)

كيف شقَّت عينه الحُجبَ إليها، فاجتباها؟

كيف ينغلُّ إليها في حَشَا عِيصٍ وقاها؟(٢)

كيف أنْحى نحوها مبراته، حتى اختلاها؟(٣)

كيف قرَّت في يَدَيْه، واطمأنت لِفَتاها؟

كيف يستودعها الشمس عامين.. تراه ويراها؟

كيف ذاق البُؤْسَ.. حتى شربت ماء لحاها؟".

وهكذا استمرت القصيدة تتناول الأحوال، والمراحل، إلى أن باعها.

---

(١) الغيل: الشجر الكثير الملتف. نماها: نسبها.

(٢) العيص: الشجر النابت بعضه في أصول بعض.

(٣) مبراته: فأسه. اختلاها: قطعها.

"ورأى كفّيْه صِفْرًا، ورأى المال...فتاها

لمحةً..، ثم تجلّى الشك عنه...فبكاها!

ورثاها بدموع، وَيْحَهُ! كيف رثاها

فتولى.. وسعيرُ النار يُخْفِي ولظاها

حسرة تطوى على أخرى، فأغضى .. وطواها".

وهذه الأبيات لم تتجاوز خبر عامر، وإنما وضحته وأعادت صياغته على الحد الذي تراه فيها.

أما ما أثارته أبيات الشماخ من صور ومعان فقد جاء ذلك في القصيدة الأم.

وقد نبّه الأستاذ إلى ذلك الفرق الدقيق بين هذه القصيدة التي قلنا إنها كمقدمة، والقصيدة الأصلية التي هي "القوس العذراء".

فقال في الأولى بعد ما أوجز خبر عامر في كلام جامع متقن. قال فيه: "هذا عامر أخو الخضر، توجست به الوحش من عرفانها شدة نقمته، جاءت ظامئة في بيضة الصيف، فراعها مجْثَمهُ في قُترَته، قليلُ التلاد، غير قوس وأسهم، خفيَّ المهاد، غير مُقْلَةٍ تتضرّم. تَبَيَّنت لمح عَينيْه، فانقلبت عن شريعة الماء هاربة، ذكرت نكاية مرماه، فآثرت ميتة الظمأ على فتكة الأسهم الصائبة" (1).

---

(١) القوس العذراء، ص٣٠.

أقول: قال بعد هذا الكلام الذي يبعث به أنغام سليقته العربية الخالصة الشريفة، والذي لا يصفه لك أحد وصف نفسك له إذا أحكمت مراجعته، وأطلت التواسم فيه، قال: "وما عامر وخبره" ثم بدأ الأبيات.

وقال بعد فراغه من هذه الأبيات: "فاسمع إذن صدى صوت الشماخ"؛

فأبان هذا مع النظر في القصيدتين أن الأولى تروي خبرًا، والثانية تروي صدى أبيات الشماخ، وما أَثارته من معان وصور، وأَنغام، وأحداث.

وقد قسّم الأستاذ محمود شاكر أبيات الشماخ الثلاثة والعشرين إلى ثمانية أجزاء تمثل ثمانية مواقف، أتبع كل قسم منها بجملة أبيات من قصيدته تمثل صدى هذا الموقف.

ففي القسم الأول: وصف الشماخ عامر الرامي في ثلاثة أبيات "فحلَّأها عن ذي الأراكة عامر"، والبيتين بعده، وكان صدى هذه الأبيات الثلاثة: عشرة أبيات.

والقسم الثاني: يشمل الأبيات التي تصف اختيار القوّاس لغصنها، وإعماله في الوصول إلى هذا الغصن، وعدد أبياته خمسة أبيات. وجاء صداه في سبعة عشر بيتًا.

والقسم الثالث: ذكر بيتين فقط للشماخ، يصفان ثِقَافهُ لهذا الغصن، والأبيات التي هي صدى هذين البيتين عددها ستة عشر بيتًا.

والقسم الرابع: ثلاثة أبيات صار فيها الغُصن قوسًا يرمي به الرامي، فلا يخطئ رميه، وعدد أبياته ثلاثة أبيات، وصداها عشرون بيتًا.

والقسم الخامس: بيتان يصفان عناية القوّاس بالقوس ومحافظته عليها، وجاء صداهما في ثمانية أبيات.

والقسم السادس: خمسة أبيات تصف رحلة القوّاس بقوسه إلى موسم الحج، ورؤية البيِّع الذي أغلى لها السوم، وجاء صداه في ثلاثة وستين بيتًا.

والقسم السابع: بيتان يصفان تردد القوّاس في البيع مع أن الثمن ربيح، وموقف أهل الموسم منه، وحثهم إياه على البيع، وقد جاء صداه في ستة وثلاثين بيتًا.

والقسم الثامن: بيت واحد، يصف ما وجده القوّاس بعد بيعه، وقد جاء صداه في خمسة وسبعين بيتًا.

وهذا التقسيم وما يقابله يوضح المعاني والأحوال التي مدت فيها القصيدة نفس الشعر، وأرخت عنانه.

وواضح أن البيت الأخير الذي هو:

فلما شراها فاضت العين عَبْرَةً

وفي النفس حزَّازٌ من الوجد حَامِزُ

أثار ما لم يثره غيره من أصداء، وأنغام، وأحوال، وهو يمثل الموضوع، لأنه وصف لواعج القوّاس بعد ما باع قوسه بثمن لا يباع مثلها بمثله.

وقد استفتحت هذه القصيدة بثلاثة أبيات، جاءت في وصف الشعر الجاهلي، وإن كانت في سياق الكلام عن شعر الشماخ، وهى أبيات حسنة جدًا، وفيها إيماءة إلى ما يتميّز به من بين أشعار الناس كافة، من حيث هو أقدم شعر يقرأ الآن بلفظه ونظمه، ونغمه الذي وجد عليه منذ أكثر من خمسة عشر قرنًا، ثم هو مع ذلك لا يشتبه علينا شيء فيه، ويحفظه المبتدئون، ولا يجدون منه نفرة، بل إن أوزانه وأنغامه لتعينهم على حفظه.

قال:

"تجاوب عنه كُهُوفُ القُرون   تردَّد فيها كأَنْ لم يَزَلْ
وأوفى على القمم الشامخات   جبالٌ من الشعر منها استهلَّ
تحدَّرُ أنغامُه المرسلات   أنْغَامَ سيل طغى واحتفل"

وأنبِّه هنا إلى شيء لا يحتاج إدراكه إلى فضل نظر، وهو خلل ترتيب أبيات قوس الشماخ في نشرة ديوانه التي بين أيدينا، فقد جاء قوله: "فوافى بها أهل المواسم"، وما بعده إلى قوله: "وفي الصدر حزّاز من الوجد حَامزُ"، بعد قوله: "أقام الثِّقافُ والطريدةُ درأَها".ثم جاء قوله: "وذاق فأعطته من اللين جانبًا"، والأبيات الأربعة التي تليه، بعد قوله: "وفي الصدر حزّاز من الوجد حامزُ"، وهي موصولة بتثقيف القوس وإعدادها الذي كان قبل موافاة أهل المواسم بها، وهذا واضح.

والبيت الأخير من أبيات الشماخ:

فلما شراها فاضت العين عبرةً

وفي الصدر حزّازٌ من الوجد حَامزُ

علقت عليه القصيدة خمسة وسبعين بيتًا كما قدمنا، وترى فيها كيف مدَّ الشعر المعاني ونمّاها، وكيف حلّل الخواطر وفصَّلها؟ وبسط الصور وأثراها؟ والأهم من ذلك كله كيف جعل الكاتب قلبه نبعًا لها؟ وكيف تولدت في نفسه واتسعت؟ وكيف أحس لوعة القوّاس إحساسًا جعل كلماته تتقد بلوعته، اقرأ هذه الأبيات:

"وفاضت دموع كمثل الحميم لَذَّاعةٌ نارُها تستهِلّ

بكاء من الجمر جَمْرِ القلوب أَرْسَلَهَا لاعجٌ من خَبَلْ

وغامَتْ بِعَيْنيهِ واستنزفت دم القلب يَهْطِلُ فيها هطَل

وخانقةٌ ذبحتْ صَوْتَه وهيض اللسان لها واعتُقِلْ"

وقد تتابعت الأبيات تشرح ما في صدر القوّاس من حزّاز من الوجد حامز، فوصفته وهو مُغض مطرق، أثقلته هموم أذهلته، وأعادت إليه صورة لحظة الأسى الذي كربه، وهي لحظة البيع بغمغماتها، وتزاحمها، واضطرابها، وقد صوّرت الأبيات هذا الموقف تصويرًا حيًا حافلًا، وهو في كلام الشماخ إيماءة أشار إليها بقوله:

فقالوا له: بايع أخاك ولا يكن

لك اليوم عن ربح من البيع لاهزُ

وقد استمدت "القوس العذراء" من هذا البيت خيوطًا كثيرة نسجت مواقف متكاملة، صور الشعر فيها خواطر الحيرة والمنازعة، والتردد تصويرًا حافلًا بليغًا.

ولنسمع كيف صوّر الشعر لحظة ذهول القوّاس، وتواثب همومه التي أغارت عليه، وأعادت إلى نفسه الصور مرة ثانية:

"وأغضى على ذلة مطرقًا عليه من الهمِّ مثل الجبل
أقام.. وما إن به مِن حراك تخاذلُ أعضاؤه كالأشل(١)
وفي أذنيه ضجيج الزحام و"بع باع، بع باع، بع يا رجل"!
وأخلد من حيث طار السُّوام بمهجته، كأَرومٍ مَثَل (٢)

ثم تعود الصورة إليه بضجيجها، وزحامها:

ومن حوله الناس مثل الدَّبى عجالا تنزى، دَهَاهُنَّ طَلّ
فَمِنْ قائلٍ: فاز .. ردّت عليه قائلة: ليته ما فعل!
ومن هامس: ويحه ما دهاه! ومن منكر: كيف يبكي الرجل؟"

وهكذا يتابع وصف الأحوال إلى أن تنسال هذه الجموع وتموت أصواتها، في أبيات حافلة جدًا بصور واضحة، ومشاهد كاملة، تسمع فيها الجهر،

---

(١) الأشل: الذي أصيب بالشلل.

(٢) السوام: المساومة في البيع. الأروم: أصل الشجرة إذا ماتت. مثل : نصب وقام.

والهمس، والغمغمة، وترى فيها الحركة الواضحة، والغمزة الساخرة، والنغضة المستخفة.

ولما أفاق رأى الجموع ذاهبة فانكشفت الصحراء من ورائهم فرأى أغربتها، وحيَّاتها، وضباعها، وضبابها، وصوّرت القصيدة ذلك في صورة لا تنقصها شية من الشيات التي تجدها عند شعرائنا الأوائل، الذين برعوا في وصف المفاوز.

ولتقرأ هذه الأبيات:

رأى الأرض تمشي بهم كالخيال ... أشباحهم خُشُبٌ تنتقلْ
وهامٌ محلَّقةٌ رُجَّفٌ ... وأخرى بدت كنزيع البصلْ (١)
وأغربة بعضها جاثم ... يحرك رأسًا، وبعضٌ حَجَلْ
وحيّات واد، لشمس الضحى ... تُلوِّي حيازيمها والقُلَلْ(٢)
وأَزفلةٌ من ضباع الفلاة ... تَخَمَّعُ من حول قتلى هَمَلْ(٣)
وهَنَّا وَهَنَّا ضِبابٌ مَرَقْن ... من كل جُحْرٍ كَسَيْلٍ حَفَلْ

---

(١) الهام: الرؤوس. الرجف: جمع راجف وهي التي ترتجف وتضطرب. ونزيع البصل : منزوعه.

(٢) الحيازيم: جمع حيزوم وهو ما اكتنفت الحلقوم. والقلل: الرؤوس.

(٣) الأزفلة: الجماعة تأتي مسرعة. وتخمع: تعرج.

تأمل تصوير الأغربة الجاثم منها وما حجل، وتصوير الحيات التي تلوِّي حيازيمها، وجماعات الضباع تعرج حول القتلى المهملين، وحركة الضباب المارقة هنا، وهناك، وسط السيل المنهمر.

وقد وصفت الأبيات بعد ذلك حال القوّاس، وهو يفيق من ذهوله وصفًا تغلغل بين همومه المتثاقلة، ولامس نفسه، وهو في حضيض مهواة سحيقة المدى تَدُبُّ إليه الإفاقة في تثاقل شديد.

وظل الشعر في هذا الموقف يحلِّل ويفصِّل، ويلمُّ بكل هاجسة وسانحة، حتى انتهى بهذا القوّاس إلى اللحظة التي لمح فيها فرعًا صالحًا، من شجر الضال، يمكن أن يبدع منه بيديه اللتين حباه بهما فاطر النيِّرات قوسًا ثانية كهذه، وبذلك فُرِّج كربه:

"وشقّت له السُّدَفَ الغاشيات حَسناءُ ضالٍ عليها الحُلَل

أضاء الظلام لها بغتةً وقوّض خيمته وارتحل

أطلَّتْ له من خلال الغصون عذراء مكنونة لم تُنَلْ"

لم يستلهم الأستاذ شاكر أبيات الشماخ ودقائقها وهي تائهة منه، مكتفيًا بفحواها العام، وإنما كانت له معها مسالك مدروسة، ومداخل تصل إلى الرحاب الفسيحة.

من ذلك أن الشماخ ذكر أن هذه القوس لما أتم القوّاس صنعها صينت، وأُشعرت حبيرًا، أي أدرجت في ثيابه الحرير، ثم ذكر الشماخ بعد رحلة القوّاس

بها إلى أهل المواسم، وتنفذ القوس العذراء، فتكشف المسافة التي طواها الشماخ بين إتمام صنع القوس، والرحلة بها إلى مواسم الحج، فينشر منها صفحة رائعة، عاشها القوّاس، وهو متنكب قوسه، يراها على بؤسه جنة، ويصاحبها في هجير القفار، ويجوب بها أهوال أرض آبائه، يحدثها عن أيامهم، ودولهم التي قامت على هذه الأرض، وهو منتش نشوة مشوبة بالأسى، وبالثقة والأمل، والحكمة.

وهذا الجزء من أروع روائع هذه القصيدة.

ولحديث الأستاذ شاكر رنة خاصة، ذات دلالات عميقة حين يتكلم عن أمّته، وحضارتها، وتاريخها، وله معرفة متميزة بهذا التاريخ، وله تصوره الخاص المنفرد لأحوال هذه الأمة، وضلالها، وعدلها، وبغيها.

ولتقرأ هذه الأبيات التي نشرت ما طواه الشماخ:

"فيحرسها وهو في أَمْنَةٍ — وتحرسه في غواشي الوَجَلْ
يجوب الوهادَ ويعلُو النجادَ — ويأوي الكهوف، ويرقَى القُلَلْ
ويُفضي إلى مُستقرِّ الحتو — ف: في دار نمر، وذئب، وصِلْ
منازل عاد وأشقى ثمو — دَ، وحِمْيرَ، والبائداتِ الأُوَلْ
مجاهلُ ما إن بها من أنيس — ولا رسمِ دارٍ يُرى أو طَلَلْ
يعلمها كيف كان الزما — ن، ومجدُ القديم، وكيف انتقلْ
وكيف تساقى بها الأولو — ن رحيقَ الحياة وخمرَ الأملْ
وأين الأخلّاء كانوا بها — يجرون ذيل الهوى والغزل

ومَلكٌ تعالى، وطاغٍ عتا وحُرٌّ أَبىَ، وحريصٌ غَفَلْ"

انظر إلى تصوير ما رأته عينه في الخرائب والمجاهل وهو في حال النشوة، والشعور بالقوة، والجسارة، رأى مجدًا، وعزًا، وتاريخًا، ولما باعها، وأطبق عليه الهم، رأى في هذه الخرائب أغربة بعضها جاثم، وبعض حجل، وحيّات تلوّي حيازيمها، وكانت الصحراء هناك مشهدًا يتزاحم بالأهوال، وهي هنا صفحة من تاريخ مجيد.

وللأستاذ شاكر قدرة عجيبة على تركيز المعاني في ألفاظ قلائل، حتى لترى الكلمة الواحدة، ترمي بفيض من المعاني، والصور، والأحداث، والأحوال:

تأمل قوله:

"ومَلكٌ تعالى، وطاغٍ عتا، وحُرٌّ أبى، وحريصٌ غفلْ".

ولله هذا الحر الذي أبى.

******

ويتميّز أسلوب الأستاذ شاكر بالعروبة النقية، المتقنة المصقولة، ترى في كلماته أَنَفَة، وعزَّة، وشموخًا، وتراها تجري في بيانه وهي حفية به، لأنه أجراها على سليقتها، واستخرج منها زهوها، وبهاءها، وشرف بيانها، وجلال نغمتها، وحكمة دلالتها.

وقد ذكر أبوحيان أن الكلام صلف تيّاه، وأن له زهوًا كزهو الملوك، وخفقًا كخفق البرق (١).

ولاريب أن هذا الصلف، وهذا الزهو، وهذا الخفق، لا يستخرجه من الكلام كل من يَرُومه. وإنما يستخرجه من كان بين أهل البيان أشبه بالملوك بين الناس.

وصقل اللغة، وبهاؤها يرى في لغة الأستاذ شاكر نابعًا من المعنى، إذ لا طريق إلى الإبانة عن هذا المعنى، إلا بهذه اللغة، وبهذا التقسيم، وبهذا الإيقاع، ومرجع ذلك إلى صقل المعاني، والأفكار وتهذيبها، وتحديدها، ثم انبعاثها في نغمها، وتقسيمها، وتعليق بعضها على بعض، على وجه من وجوه التعليق.

فليست هناك مراجعة للألفاظ، وإنما هناك مراجعة للمعاني، وتعرف على دقائق شياتها، ثم الوفاء بها في الإبانة عنها، وهذا الفرق بين فنون صنعة الكلام حين تراها في الأساليب المطبوعة كأسلوب الأستاذ شاكر، وحين تراها في كلام المتكلمين، انظر إلى قوله، وهو يصف الإنسان بعد ما حاد عن المنهج الذي لا يختل، والهدي الذي لا يتبدل:

"فعندئذ حَاكَ الشكُّ في صدر اللاحق، حتى قدح في تمام صنع السابق، فاستدرك عليه، وقلق الوارثُ، حتى خاف تقصيرَ الذاهبِ، فاسْتَنْكَفَ الإِذْعَانَ إليه، فكذلك جاشت نفسه، حتى اندفقت صُبَابة منها فيما يعمل، وتضرّم قلبه،

(١) ينظر: الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص ٩.

حتى ترك ميسمه فيما أنشأ، فتدلَّه بصنع يديه، لأنه استودعه طائفة من نفسه، وفتن بما استجاد منه، لأنه أفنى فيه ضِرامًا من قلبه، وإذا هو يستخفُّه الزهو بما حاز منه وملك، ويضنيه الأسى عليه إذا ضاع أو هلك" (١). انظر كيف أوقع "حتى" و "الفاء" و "الواو" وعلّق المعاني بعضها على بعض، وأجرى نسيج الكلام على وجه دقيق.

و "حتى" هنا للغاية، فهي تشير إلى أن ما بعدها نهاية ما قبلها، ثم تأتي الفاء مشيرة إلى أن ما بعدها مسبب عمّا قبلها، ثم يعاد هذا النسق بهذا الربط، ثم تكون الواو الداخلة على جملة "قلق الوارث" عاطفة لجملة من الجمل التي تعلقت بها على جملة الجمل التي سبقتها، والتي نسقت من داخلها نسقًا كنسقها، وتأتي الفاء في قوله: "فكذلك جاشت نفسه"، للإشارة إلى أن هذا المعنى الذي هو جيشان النفس وما بعده، إنما يأتي مرتبًا على ما قبله الذي أساسه جملة "حاك الشك في صدر اللاحق"، لأنها هي الأصل الذي ارتبط به كل ما بعده، ثم تجد لام التعليل في قوله: "لأنه استودعه"، تتكرر وتتوازن في قوله: "لأنه أفنى"، ثم تجد تناغي الأصوات في القاف في قوله: "تمام صنع السابق"، مع قوله قبله: "حاك الشك في صدر اللاحق"، وتتحدر المعاني إلى قرارها مع كل فاصلة، عند كلمة "إليه"، و"يديه".

---

(١) القوس العذراء، ص ٢٤.

وهكذا كلما أمعنت وجدت ضروبًا من صنعة البيان الشريفة تزهو به عروبة اللسان، ويتهادى نغمه الجليل.

واقرأ قوله في الإنسان:

"أُبتلي من يومئذ فتمرَّس، وأسلم لمشيئتهِ فتحيّر، جار وعدل، فعرف وجرّب، أخطأ وأصاب، ففكر وتدبَّر، نزع إلى النهج الأول، فأخفق وأدرك، تاق إلى الهدي القديم، فأُعطي وحُرم، احتفر ذخائر الفطرة، فأكدت عليه تارة ونبعت، التمس شوارد الإتقان، فندَّت عليه مرَّة واستقادت" (١).

انظر إلى هذه الفاءات، وكيف ربطت أوائل المعاني بأواخرها. ربط مسبب بسبب، ثم كيف تعادل هذا مع تلك المطابقات التي تتجلى بها الحقائق، وتتميّز، وتتحدد، وتتسع أيضًا، ثم كيف توازن هذا مع الاستئناف الذي بنيت عليه أكثر الجمل، فأفاد المعاني ضربًا زائدًا من الاستقلال، والتميّز، والاحتفال. وصارت كل جملة تمثل حقيقة قائمة بنفسها، يؤتنف لها الكلام ائتنافًا، ثم كيف تقاربت الجمل في عدد الكلمات، فأحدث ذلك ضربًا من التزاوج ثم التشابه.

والإصابة في مواقع حروف المعاني على الحد الذي رأيناه يكون كما قلنا من النظر في تخليص المعاني، وتحديدها، وتعليق بعضها على بعض، وهو عند أهل العلم ضرب من تثقيف الكلام أشبه بطرائق أهل الطبع، ثم هو عندهم فوق تخليص المجازات والمطابقات، وفنون البديع، لأن هذه وإن كانت دالة على

(١) القوس العذراء، ص ٢٤.

التمكن، وقوة النحيزة، إلا أن تصاريف حروف المعاني أغمض مسلكًا، وألطف موقعًا.

قلت: "إن القوس العذراء" منهج وطريق في خلق حياة فكرية ثرية وخصبة، تقوم على ما بين أيدينا من تراث، وليس على الاقتباسِ الذي أبطل عقولَنا في كل فرع من فروع المعرفة، حيث اتكأْنا على ما كافحت في استخراجه عقول الآخرين.

وصار محصول ما بين أيدينا كما وصفه الأستاذ محمود شاكر:

" ترديدًا لقضايا غريبة، صاغها غرباء، صياغة مطابقة لمناهجهم، ومنابتهم، ونظراتهم، في كل قضية، واختلط الحابل بالنابل.. قل ذلك في الأدب والفلسفة، والتاريخ، والفن، أو ما شئت، فإنه صادق صدقًا لا يتخلف، فالأديب مصور بقلم غيره، والفيلسوف مفكر بعقل سواه، والمؤرخ ناقد للأحداث بنظر غريب عن تاريخه، والفنان نابض قلبه بنبض أجنبي عن تراث فنه" (١).

وهذا هو الذي جاهد الأستاذ شاكر ويجاهد في مطاردته، لتثبيت الاتجاه الصحيح، وغرس القيم الفكرية الصحيحة في حياتنا العلمية.

---

(١) مجلة الثقافة، العدد ٦٠ مقال "المتنبي...ليتني ما عرفته"، ص ١٦.

"القوس العذراء" فكر ، وأدب حي جديد، وضع الشماخ نبتته، ورواها شاكر بفيض من حسه وفكره، فأزهرت وأورقت وغنيت، وصارت في رياض المعرفة شجرة طيبة، أصلها ثابت، وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين.

وهذا ما يجب أن يكون في فروع المعرفة كلها، وليس في الأدب فحسب، يجب أن نقرأ كل باب من أبواب العلم الذي كتبه علماؤنا، قراءة كقراءة الأستاذ شاكر قوس الشماخ، ويجب أن نستخرج من كل باب ما استخرجه الأستاذ شاكر من قوس الشماخ، وعندئذ سوف يكون بين أيدينا علم حافل هو علمنا، وخلق عقولنا، وقلوبنا.

وهذا لا يتأَتّى إلا حين يلامس قلوبنا وعقولنا أصول هذه العلوم، وفروعها، ونفتش في مسائل العلم مسألة مسألة، ونقف عند كل فكرة، وكل كلمة، ونديز ذلك في أفئدتنا، مرات، ومرات، حتى تعود قلوبنا منابت صالحة لهذه العلوم، وكأنها تنبت فيها مرة ثانية، نحس كل فكرة فيها، وكل حقيقة، ونصبر على ذلك، حتى تولد الولائد في نفوسنا، فنستخرج من الفكرة فكرة، ومن الحقيقة القديمة حقيقة جديدة، هي أوسع منها، وأبعد، وأعمق، ولكنها منها، كما أن "القوس العذراء" من قوس الشماخ.

والعقول الكبيرة التي عانت البحث عن الحقيقة حين تأسست العلوم تجد دائمًا في كلامها غمغمة بحقيقة بعيدة وراء الحقيقة الظاهرة، المدلول عليها في كلامهم دلالة مباشرة، والخطأ هو الاكتفاء بهذه الحقائق الجهيرة، وإغفال تلك

الحقائق المتوارية، والتي وجدوا لها في عقولهم وميضًا، فأومضت بها عباراتهم إيماضًا على حد ما وجدوها في نفوسهم، وهذا شيء لا تخطئه العين التي طالت ممارستها لمثل كلام سيبويه، والفارسي، وابن جني، وعبدالقاهر وغيرهم من الذين تجد ألفاظهم مكتنزة تنبض بكثير من الحقائق.

ويشير الأستاذ شاكر إلى هذه الحقيقة، فيذكر أن سعة الألفاظ واختزانها ليس في الشعر فحسب، وإنما يجري ذلك في كل ما تتناوله اللغة (١).

وترى - حيثما قرأت للأستاذ شاكر - بين يديك غرائب من الفكر، ودقائق من النظر، ثم ما يلبث أن يُنْطِقَ لك بها شاعرًا من شعرائنا أو عالمًا من علمائنا، وحينئذ تجد لهؤلاء العلماء والشعراء الذين يذكرون في كتبه، شيئًا آخر غير الذي تجده لهم حين يساق كلامهم وهو مقهور ذليل، يرسف في أغلال الجهل والسطحية موسوم بفقدان المنهجية، والتخلف، فيه بلادة وغفلة، فلم يفطن إلى كذا ولا كذا، مما تجده مطروحًا بين يديك في أكثر الذي تقرؤه، سواء في ذلك كتب الكبار، أو كتب الصغار الذين يريدون أن يكونوا كبارًا.

لاريب أن موقفنا من خلق حركة فكرية صحيحة موقف ليس صحيحًا، وأصل ذلك موقفنا من تراثنا، لأن قُصَارانا أن نقول فيه: إن مراد القائل هو كذا، ونقف من أفكار علمائنا موقف التلميذ من الدروس التي يجب أن يفهمها، وليس موقف الأستاذ الذي يتدسس بعقله، وفطنته، وثقافته، وأستاذيته، في

---

(١) ينظر: أباطيل وأسمار، ج١، ص ٢٥.

بطون الحقائق ليستخرج منها ما أجنّت وما أكنّت، وأن يمد ذلك ويبسطه فيصبح بين يديه حقيقة ذات أبعاد.

نقول مثلًا: إن الشماخ أراد أن الحُمُر قصدت ذا الأراكة، فمنعها عنها صائد درب، هو عامر أخو الخضر، وأنه محترف للصيد، لا مَنْجاة من رميته، وأن له أسهُمًا نافذةً، وقوسًا جيدة، وهكذا نستمر في بيان ما أبان عنه الشماخ، ونكتفي بذلك أو نأخذ بشيء من المعاصرة، فنقول: إن هذه الأبيات لوحة جيدة من لوحات الصحراء، فيها اللون، والحركة، والظلال، وقد وزَّع الشاعر كل ذلك ببراعة، وكأنك ترى في يديه ريشة فنان بارع، يغمس ريشته في وجدانه، فيستخرج أغمض الأَلوان وأَدقَّ المشاعر، وهكذا نستمر في كلام كهذا الكلام متجهين إلى جهة واحدة، هي أن نقول في شعرائنا مثل ما يقوله الناس في شعرائهم على الحد الذي نتصوره، ونحن حين نفعل ذلك نعتقد أننا أفرغنا أبيات الشماخ من كل ما فيها في تحليلِنا هذا، بل وأنصفنا الرجل، لأننا وضعنا في يديه ريشة الفنان البارع، وجعلنا أبياته لوحة.

ولا تجدنا ندير عيوننا في أبيات الشماخ لنلتقط هذا الشعاع الذي التقطه الأستاذ شاكر، وهو هذه الرابطة الحميمة بين الصانع وما صنع، والتي كانت نبتة رواها قلم الأستاذ شاكر؛ فأزهرت "القوس العذراء".

وكذلك يقال في قراءتنا للتراث كله، نعتقد أننا حين نبيّن مراد القائل، نكون قد وصلنا إلى قراره، وأفرغناه من كل ما فيه، فإذا أردنا أن نكون من ذوي

المناهج العلمية، قلنا: إن هذه الفكرة في كلامه أصلها عند فلان وأنه أخذها، ولم ينتبه، وأنه حين يقول: "قال بعضهم" إنما يريد فلانًا، إلى آخر ما تجدنا نهتم به، ثم نعتقد أننا لم ندع من الأمر شيئًا إلا كشفناه، ولهذا شاع القول بأن التراث قد دُرس، وأن فلانًا من المحدثين كتب عن فلان من القدماء، وهذا كله قاصر جدًا في ضوء ما بينّاه من الطريقة الواجبة في قراءة التراث، على هدي ما رأيناه في "القوس العذراء".

وهناك أسلوب شائع في تناول التراث يصطنعه كثير من أهل العلم، وهو أن نطالع ما عند الناس، ثم نعود إلى تراثنا نتلمس ما يمكن أن يكون شبيهًا بهذه الأفكار، سواء أكان الشبه مقاربًا، أو مما نتأتَّى له بشيء من الحيلة والمسامحة.

والمحصلة أن نقول: إن عبدالقاهر مثلًا، سبق المحدثين في القول بكذا، وأن سيبويه فطن إلى النظرية الفلانية. هذا الطريق وإن كان يُرضي زهونا التاريخي، وخاصة بعد ما ألح على عقولنا القول بفساد تراثنا، حتى استيأسنا، وظننا أننا قد كذبنا حين اعتقدنا أننا أمة عريقة.

أقول: هذا المنهج، وإن كان يُرضي غرورنا فليس لنتائجه قيمة علمية، لأن العلم لا يتقدم بهذا قيد أنملة، وإنما علينا فقط أن ننتظر حتى يقول الذين يتكئون على عقولهم كلامًا جديدًا، في شأن من شؤون الفكر والأدب، ثم نخرج من الذي عندنا شيئًا يشبهه، وكأننا نقول بلسان الحال: إذا كنّا عاجزين

عن أن نقول مثل ما تقولون، فقد قال آباؤنا مثله، وأن فكركم هذا الذي استبدّ بالعصر مهما جدّ فلن يقع إلا بعيدًا عن أعقاب آبائنا.

ثم إن ثمة شيئًا آخر يحدث في هذا الباب؛ هو أن الأفكار التي نقول: "عندنا مثلها" سرعان ما ينبذها أصحابها، ويتجاوزونها، ويأتون بشيء جديد، وهم في هذا ماضون على طريقهم من الجد، والاتكاء على عقولهم، وعلينا إذن أن نخرج هذا الشيء الثاني من تراثنا.

وقد استهلكت هذه الطريقة جهودًا كثيرة من كتّابنا.

انظر إلى محاولات استخراج التجربة الشعرية، والوحدة العضوية، وأخيرًا البنيوية والأسلوبية، وقلَّ أن تجد كاتبًا في الأدب، ونقده لم يحاول أن يتلمس أشباهًا لهذا الفكر في تراثنا.

والصواب هو أن نستخرج من تراثنا ما تهدينا إليه عقولنا، وافق الذي عند غيرنا أم لم يوافق، المهم أن يوافق صريح عقولنا، وأن نرضاه ونستحسنه نحن، بعيوننا وعقولنا، وأن نجد فيه كفاء لحاجتنا الفكرية والأدبية، وهذا مطلب عزيز، وإنما ينال بالصبر والمجاهدة.

وقد تبقى الفكرة في الكتب صامتة خرساء، وتبقى على ذلك دهورًا حتى تلامس عقلًا حيًا صادقًا يحمل بين جنبيه هذه الهموم الشريفة، فيستخرج منها أزكى ما يستخرج وأنبله.

******

وهذا النهج الذي خطته "القوس العذراء" إحياء وبعث لطرائق الكَملَةِ من أهل العلم في تاريخ علومنا، ولاريب في أن لدينا تجارب غنية في إبداع المعرفة، وإنشاء العلوم، يمكن أن نصطنع مسالكها كما اصطنعتها "القوس العذراء" بحدس حضاري نادر.

علينا أن نعود إلى كلام الكبار من العلماء الأوائل، وأن نطيل النظر فيه غير مستهدفين استيعابه فقط، لأن الاستيعاب وحده لا يُقدِّم ولا يُؤخِّر فيما نحن فيه، وإنما لنستخرج خبأه، ونبعث الفكرة من وراء الفكرة، ونستل الخيوط المضمرة من غيبها، ونمدها لننسج كلامًا آخر هو منها، ولكنه غيرها.

وهكذا فعل الكبار...

تأمل كلام عبدالقاهر في أي باب تشاء، لا لتحصِّل مادته، فذلك شيء يجب أن نكون قد فرغنا منه، وإنما لترقب حركة عقله، وهو يكابد الإبداع، وخلق الأفكار، ويعتصر ما بين يديه من حقائق سلفه، ليستخرج منها رحيقًا جديدًا.

تأمل باب التقديم الذي ما برح فيه يُلح على استنطاق كلمة سيبويه "إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى"، حتى غمغمت تلك المقولة بكل ما في بحث التقديم، مما يرى في دلائل الإعجاز، وكأنه على غير مثال.

تأمل بحث القصر الذي أَسَّسَه على محاورة ذكية مع نص نقله من الشيرازيات، ومازال يستلُّ من هذا النص خيوطًا، ويستخرج من الخيوط

خيوطًا، حتى قدَّم شيئًا جديدًا، ليس هو كلام أبي علي، وليس مقطوعًا عنه، وإنما هو متناسل منه، كما يتناسل الحي من الحي.

وهكذا إذا تأملت كلام الشيخ مسألة مسألة، وجدت جذورها في كلام سلفه، وفروعها منبثقة من فؤاده، ودعك من هذه الهَرْطَقَةِ التي تقول: إنه تلميذ لأرسطو، فليس لها دليل واحد لا يحتمل، وقد كان الرجل ينبِّه إلى مصادر معارفه، وهي على هذا الحد الذي وصفناه، وليس فيه مسألة واحدة غائمة المصادر إلا عند من لا خبرة له بالتراث الذي كان بين يدي الشيخ رحمه الله.

وقد عرضنا كثيرًا من مسائله التي هي أوضح ما قالوا فيه: إنه استلال من كهف يونان الزاخر. وبينًّا مصادرها بيانًا لا يلتبس (ينظر كتابنا خصائص التراكيب، صفحات: ٢٠، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، والتصوير البياني صفحات ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥).

ودع عبدالقاهر وانظر إلى تجربة أبي الفتح، في كتاب الخصائص، وكيف استخرج من كلام سيبويه وأبي علي وغيرهما علمًا ليس هو علم سيبويه، ولا علم الفارسي، وإنما هو علم أبي الفتح، وكما استخرج عبدالقاهر من مضابئِ النحو علمًا آخر هو علم المعاني، استخرج أبوالفتح من هذه المضابئ نفسها علمًا آخر هو علم أصول النحو، وقياس العربية، وهو عند ابن جني "أشرف ما صنف في علم العرب، وأذهبه في طريق القياس والنظر.. وأجمعه للأدلة على ما

أودعته هذه اللغة الشريفة من خصائص الحكمة، ونيطت من علائق الإتقان والصنعة". (مقدمة الخصائص).

ونلفت هنا إلى شيء مهم، وهو أن اجتهاد أهل الاجتهاد من أئمتنا الكَمَلَة ﷺ، لم يكن اجتهادًا في استخراج مسألة من مسألة ، أو في استخراج باب من باب، وإن كان ذلك نفيسًا وهو علينا عزيز، وإنما كان يكون اجتهادًا في استخراج علم من علم، وتلك هي الغايات التي لا يدركها إلا الأفراد. ومن العجيب أننا سكتنا سكوت من لا يعلم عن مناهج هؤلاء في الاجتهاد والاستخراج، وهي مناهج جديرة بأن تدرس ويستخرج منها، وتكون بدائل زاهية لما ندرسه من منهج البحث في معاهدنا، لأنها تجارب كل خطواتها بين أيدينا، ثم هي أقرب إلى عقولنا، لأنها مستخلصة من علومنا، ومناهج البحث الحديثة لم تخصِّب عقولنا كما نود، ولم تحفِّز هممنا نحو الإبداع، والوصول إلى حقائق علمية جديدة، والذي هو المقصود أساسًا من إحكام مناهج البحث، وليس هذا قدحًا فيها، وإنما هو الواقع الذي نلمسه بأيدينا، ولم أعرف عقلًا ألف مضغ المنهج والحداثة ثم انبثق عن حقيقة مفيدة.

وأقول: إن استخراج مناهج هؤلاء الأعلام ليس هو هذا التهاون الذي نجده في الكتب التي صنفت عنهم، والتي نكتب فيها فصلًا عن المنهج، ثم نكتب فيه عادة حقائق، مثل أن هذا العالم كان ينسب الرأي إلى صاحبه، أو أنه كان لا ينسبه، وأنه يكون بصريًا في مسألة، أو كوفيًا في مسالة، أو أنه من مدرسة

المتأدبين، أو من مدرسة المتكملين، وأنه كان يخرج الشعر ، والأحاديث، أو أنه لا يفعل ذلك، إلى آخر هذه المعارف السطحية والتي يقع عليها القارئ المبتدئ.

ولابد أن يكون دارس منهج العالم من هؤلاء الأعيان قد فطن لكل كلمة قالها، ووعاها وعيًا يستطيع به أن يَقفُوَ أثرها حتى يصل بها إلى منابتها في كلام من سبقه، أو يصل بها إلى انبثاقها في نفسه، ثم يصف قصة الفكرة في عقل هذا العالم، وكيف نمّاها، ومن أي جهاتها جذبها حتى امتدت، وكيف مخضها حتى أخرج مَخْضَها، وغير ذلك مما تجده حيًا واضحًا بين عينيك حين تديم النظر في كلامهم، وتعطيه حقه من العناية والصبر.

وهذا الباب الذي هو علم مناهج البحث في علوم العربية لا يجوز أن ينهض به المبتدئ، مهما كان إخلاصه، ومهما كان جِدُّه وذكاؤه، وإنما ينهض به الشيوخ من علمائنا، الذين عكفوا الفكر على هذه العلوم، وانجَذَبَت رَوِيَّتُهم إليها، لأنها ليست دراسة في كلام العلماء، وإنما هي نظر في منابع علومهم وترقيق أفكارهم بحركة عقولهم، وارتياض قلوبهم للذي ارتاضته من عصية، ومعاناة أفئدتهم في اقتناص نافره، وتأليف شارده، ولا أقل من أن نحفظ لهؤلاء حرماتهم، ونبعد بهم عن هذا اللغو اللاغب الذي ضُرب على عقولنا، ولا ننتدب لدراسة هذا الجانب في تراثهم، إلا من كان أشبه بهم هديًا وسمتًا.

وتجلية روح الاجتهاد المنطوية في التراث أمر ضروري، وإشاعة هذه الروح كأصل من أصول المعرفة أمر ضروري، وليس بين المتخصصين في العلوم

العربية والإسلامية فحسب، وإنما بين المشتغلين بالعلم في كل فروعه، لأن هذه الروح قيمة إبداعية، وحضارية لا يجوز إغفالها، وقد غابت عن الساحة منذ زمن، وصارت حياتنا الفكرية في غيبة هذه القيمة تعاني عقمًا ظاهرًا. بل وعنوسة بغيضة شوهاء. والغريب أن هذا التراث المنطوي على عناصر تستهدف إثارة أقدس ما في الإنسان من طاقات خلّاقة ومبدعة، يوصف بالجمود، ويوصف المحافظون عليه بالجمود والتخلف، وأنهم يريدون أن يرجعوا بنا إلى الوراء "تَخُبّ بنا النّجيبةُ والنّجيبُ"، وأنه ترسّخ في نفوسهم أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، وأن عيونهم لا ترى أضواء العصر الباهرة، إلى آخر ما تجده في كتابات تذيّل أسماء كاتبيها بأنه رئيس قسم كذا في جامعة كذا، وهذا دليل قاطع على أن القيم الإبداعية في تراث الأمة مطمورة مغيبة عن عيون علمائها!

وليس هذا تقصيرًا فحسب، وإنما هو أمر منكر، لا تجده إلا عندنا، وكلنا يسمع من طلّابه، ومحدثيه ما يدل دلالة قاطعة على أنهم يفهمون أن الحفاوة بالتراث والعكوف عليه يعني إلغاء الطاقات الخلّاقة، والاكتفاء بالحفظ والاستيعاب، إلى آخر ما لا تجد في نفسك أمامه إلا الحيرة، والتَّلدُّد، ثم الصمت، لأنه جهل بألف باء حقائق التراث، وتاريخ الفكر والعلوم في أمة تمتلك تاريخها، وحاضرها. ومن أهم ما غرس هذا الخطأ في النفوس ارتباط

كلمات التطور والتجديد والحداثة والمعاصرة بالأخذ عن الحضارة الغربية. وكلمة التجديد ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بأمرين:

١- الرمي في وجه القديم بعد قتله بحثًا!

٢- إغراء العقول بالفكر الغربي، والترويج له ترويجًا ظاهرًا.

وتجد الكتب تقوم على أساس عرض شريحة من الفكر السلفي، وقد يساء اختيارها، ويهمل فهمها، مع الزعم أنها قتلت بحثًا، ثم عرض شريحة من الفكر الغربي، ثم التعليق على كلام القدماء بمثل هذا، انظر لترى "وجهًا معروقًا بادي العظام، شاحبًا يسير الحظ من الحيوية والنضرة"، ثم التعليق على كلام الغربيين بمثل هذا، انظر لترى " صورة أَنضر وجهًا، وأبهى قسمات من تلك الصورة التي عرضها حديث الأقدمين".

الكل يقول مثل هذا مع اختلافهم فيما بينهم من حيث المنازع والاهتمامات والأهواء، وقد يقال في التعليق على كلام الغربيين شعرًا ونقدًا: إننا لا نستقصي هنا ما في هذه الصور من جمال ومتاع، أو دقة ونفاذ، لأن ذلك يطول. ويقال في التعليق على كلام علمائنا وشعرائنا: إننا لا نستقصي ما في هذا من فساد أو سطحية، أو نثرية، أو فقدان مقومات الشعر أو الفهم. وكأنك في معرض لوحات إعلامية للتشهير بالقديم "العربي الإسلامي"، والتنويه بالحديث "الغربي المسيحي"، ومع هزال هذا اللون من الإخراج، وضعف مادته العلمية جدًا، والخطأ الصريح في تفسير المعروض من الصور الحديثة، وسطحيته،

والانبهار الصارخ في التعليق عليه، أقول مع ظهور ذلك كله: فقد نفذت هذه الأفكار، وغذّت العقول والقلوب، وشكّلت وجهة نظر جيل كامل، أصبح الآن قائمًا على أمر العلم والفكر والأدب في الجامعات وغيرها، وقد صحبت هذه الأفكار جلجلة جهيرة بأستاذية قائليها، وريادتهم، وعلمهم الواسع بالتراث، وجهادهم في سبيل تجديده، ومحاماتهم الشديدة عن القديم وغيرتهم عليه من عقلية الشيوخ، وهذا الذي يرى كأنه هدم هو في الحقيقة تجديد لعقل الأمّة، ووجدان الأمّة، وتراث الأمّة أيضًا، وهذه النار التي يشعلها هذا الكلام في عقل الأمّة وتراثها، هي النار العظيمة المقدسة، التي تجلو الجوهر وتزيل الخبث، إلى آخر ما أحاط بنفوس المبتدئين وهيأها لهذا الفساد، فقرّ فيها وتأثّل. وبهذا ومثله وهو كثير، ارتبط التجديد في نفوسنا بالأخذ عن الغرب، وارتبط التراث في نفوسهم بمجافاة التجديد، ثم الإغراق في الجمود والدوران في الدائرة المغلقة "مَحَلَّك سِرْ".

وغابت عن الأذهان فكرة انبثاق الجديد من غيب القديم، وإشاعة طرائق المفكرين المسلمين، واجتهادهم وجهودهم في خلق المعرفة، وقدراتهم الفائقة على تطويرها، وكيف كانوا يصبون عقولهم على القليل الخافت، فيصبح كثيرًا نافعًا، وكيف شقت عقولهم حجب الغيب عن خير كثير، إلى آخر ما يلفت إلى تلك الطاقة الهائلة في التراث والتي هي قادرة – لو أتقن اصطناعها – على إثارة ما أودع الله في فطرة الإنسان من طاقات، وابتعاث شعل القلوب والعقول

تسطع وتدفئ. على الحد الذي تجلّى في "القوس العذراء". كل ذلك مسكوت عنه. ومضت البحوث والكتب على ما صيغت عليه العقول من النمط والمنوال الذي ذكرناه.

وكل من أراد أن يكون ابن عصره مجددًا، متحررًا، مستنيرًا؛ فهذا سبيله، يسوق كلام القدماء في المسألة، ثم يعلق عليه بأنه صادر عن فقدان الوعي بكذا "بجوهر الشعر"... بحقيقة التجربة... بالصدق الفني... بالتناسق النفسي... بوظيفة الخيال... بحقيقة الصورة... بطبيعة اللغة... إلى آخر ما ترى، والمهم أنه كلام صادر عن عدم وعي بالشيء الذي يعالجه، ثم يذكر في المسألة نفسها نصًا مقتبسًا، ويعلق عليه، بأنه تحليل جيد لكذا، أو فهم نافذ، ووعي عميق إلى آخر ما تقرأ.

وهذا الأسلوب في الكتابة سهل جدًا، وذلك مما أغرى به، لأن هذه التعليقات - بالحق أو بالباطل - أيسر بكثير من الوقوف على النص لتفصيل مجمله، وتوضيح مبهمه، وتجلية جوهره، إلى آخر ما يعانيه أهل العلم في كل أمة.

وصدقني إن كتابة الكتاب من هذا النوع المتجدد المتطور لأيسر كثيرًا من فهم باب من كلام أبي الفتح، فضلًا عن سيبويه الذي يكاد يتغول العقول تغولا.

وصدقني مرة ثانية، إنك تستطيع أن تكتب من هذا اللون بحوثًا ومقالات، تشغل بها الناس من غير أن تشعر بالرهق الذي يكاد يخلع نفسك، وأنت تساور نصًا لبهاء الدين السبكي.

وبعد...

فإن أكن قد أصبت شيئًا من عطاء هذه الرسالة الجليلة، فذلك من فضل الله أستيعنه سبحانه على شكره، ثم أتقدم به إلى كاتبها الفاضل عرفانًا لفضله.

وإن كنت لم أصب، فمرد ذلك إلى ما لا يطاق له دفع، والله حسبنا ونعم الوكيل.

إنه من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله ومن تبعهم بإحسان.

البلد الأمين في ١٩ من ذي القعدة ١٤٠٢هـ

د. محمد محمد أبوموسى

قائمة إصدارات

الوعي الإسلامي

- القدس في القلب والذاكرة
- حقوق الإنسان في الشريعة الإسلامية
- المجموعة القصصية للأطفال (الأولى)
- الحوار مع الآخر المنطلقات والضوابط
- النقد الذاتي رؤية نقدية إسلامية
- المرأة المعاصرة بين الواقع والطموح
- الحج ولادة جديدة
- الفنون الإسلامية تنوع حضاري فريد
- لا إنكار في مسائل الاجتهاد
- المجموعة الشعرية للأطفال
- التجديد في التفسير نظرة في المفهوم والضوابط
- مقالات الشيخ محمد الغزالي في مجلة الوعي الإسلامي
- مقالات الشيخ عبد العزيز بن باز في مجلة الوعي الإسلامي
- رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام
- موسوعة الأعمال الكاملة الخضر حسين
- علماء وأعلام كتبوا في الوعي الإسلامي
- براعم الإيمان نموذج رائد في صحافة الأطفال
- الاختلاف الأصولي في الترجيح بكثرة الأدلة والرواة وأثره
- الإعلام بمن زار الكويت من العلماء والأعلام
- الحوالة
- التحقيق في مسائل أصول الفقه التي اختلف فيها عن الإمام مالك بن أنس
- الأصول الاجتهادية التي يبنى عليها المذهب المالكي
- الاجتهاد بالرأي في عصر الخلافة الراشدة
- التوفيق والسداد في مسألة التصويب والتخطئة في الاجتهاد
- فقه المريض في الصيام
- القسمة
- أصول الفقة عند الصحابة- معالم في المنهج
- السنن المتنوعة الواردة في موضع واحد في أحاديث العبادات
- لطائف الأدب في استهلال الخطب
- نظرات في أصول البيوع الممنوعة

- الإعلاء الإسلامي للعقل البشري
- ديوان شعراء الوعي الإسلامي
- ديوان خطب ابن نباتة
- الإظهار في مقام الإضمار
- مسألة تكرار النزول في القرآن الكريم
- الحافظ أبو الحجاج يوسف المزي وجهوده في كتابه تهذيب الكمال
- في رحاب آل البيت النبوي
- الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية
- منهاج الطالب في المقارنة بين المذاهب
- معجم القواعد الفقهية ومصادرها
- كيف تغدو فصيحا
- موائد الحيس في فضائل امرؤ القيس
- إتحاف البرية فيما جد من المسائل الفقهية
- تبصرة القاصد على منظومة القواعد
- حقوق المطلقة في الشريعة الإسلامية
- اللغة العربية الفصحى
- المذهب عند - الحنفية - المالكية - الشافعية - الحنابلة
- منظومات أصول الفقه
- أجواء رمضانية
- المنهج التعليلي بالقواعد الفقهية عند الشافعية
- نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده
- دراسات وأبحاث نشرت في مجلة الوعي الإسلامي
- ابن رجب الحنبلي وأثره في الفقه
- التقصي لما في الموطأ من حديث النبي
- المجموعة القصصية للأطفال (الثانية)
- كراسة لون للأطفال
- موسوعة رمضان
- جهد المقل
- العذاق الحواني على رسالة القيرواني
- قواعد الإملاء
- العربية والتراث
- النسمات الندية في الشمائل المحمدية
- اهتمامات تربوية
- أثر الاحتساب في مكافحة الإرهاب

- القرائن وأثرها في علم الحديث
- جهود علماء الحديث في توثيق النصوص وضبطها
- سيرة حميدة ومنهج مبارك
- أبحاث مؤتمر الصحافة الإسلامية الأول
- نظام الوقف
- قراءة في دفتر قديم الأصمعيات
- قراءة أخرى في دفتر قديم الكامل
- الترجيح بين الأقيسة المتعارضة
- التلفيق وموقف الأصوليين منه
- التربية بين الدين وعلم النفس
- مختصر السيرة النبوية
- معجم الخطاب القرآني في الدعاء
- المسائل الطبية المعاصرة في باب الطهارة
- المسائل الفقهية المستجدة في النكاح
- دليل قواعد الإملاء
- علم المخطوط العربي
- التراث العربي
- من قضايا أصول النحو عند علماء أصول الفقه
- نهاية المرام في معرفة من سماه خير الأنام (ذخائر مجلة الوعي الإسلامي ١)
- الجزء المسلسل بالأولية والكلام عليه (ذخائر مجلة الوعي الإسلامي ٢)
- مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم (ذخائر مجلة الوعي الإسلامي ٣)
- السراج الوهاج في ازدواج المعراج (ذخائر مجلة الوعي الإسلامي ٤)
- الاستدراك (ذخائر مجلة الوعي الإسلامي ٥)
- تلوين الخطاب
- التاريخ في الإسلام
- رسالة في الوقف
- أغاريد البراعم
- أخلاقنا الجميلة
- قصص للأطفال
- قواعد العدد والمعدود
- جواب العلامة السفاريني (ذخائر مجلة الوعي الإسلامي ٦)
- أسرار العربية
- علماؤنا وتراث الأمم، القوس العذراء وقراءة التراث